

الفصل الحادي والثلاثون

جيران إنجلترا

١٧٥٦ - ٨٩

١ - ... إرلندة جراتان

شرح رحالة انجليزي زار إرلندة في ١٧٦٤ أسباب جنوح الفقراء إلى الإجرام فقال : « أي خوف من العدالة أو العقاب يمكن توقعه من فلاح إرلندي يتردى في حال من التعاسة والفقر المدقع ، حال لو أن أول رجل صادفه ضربه على أم رأسه وأراحه إلى الأبد من حياته البائسة الضنكة لحق له أن يحسبه عملاً ودياً جديراً بالثناء ؛ ... واحتمال الكثيرين منهم ... لحالتهم المزرية بصبر دليل كاف لدى على ما في طبيعتهم من لطف فطري» (١).

ولم يكن ملاك الأرض - ومعظمهم من البروتستنت - هم الظلمة المباشرين للفلاحين - ومعظمهم كاثوليك - ولا أشدهم ضراوة ، فالملاك كانوا يعيشون عادة في إنجلترا لا يرون الدم الذي لطمخ الإيجارات التي يبتزها الوسطاء الذين يؤجرون لهم أرضهم ؛ والوسطاء هم الذين استنزفوا كل درهم استطاعوا ابتزازه من الفلاحين ، حتى اضطر هؤلاء إلى أن يكتفوا في غذائهم بالبطاطس وفي لباسهم بالأسمال .

وفي ١٧٥٨ ، سمح لإرلندة خمس سنين بتصدير الماشية إلى بريطانيا لأن المرض كان يفتك بالماشية في إنجلترا . فتحوّلت أفدنة كثيرة في إرلندة - بما فيها الأرض المشاع التي كان المزارعون المقيمون يستعملونها من قبل - من الزراعة إلى رعي الأغنام أو الماشية ، فازداد الأغنياء غني والفقراء فقراً . ثم أضافوا إلى مشكلاتهم بالزواج المبكر - « عند أول ميسرة » كما

(م ١١ - قصة الحضارة ، ح ٤١)

قال السير وليم بتي^(٢) ، ولعل الأمل راودهم في أن أطفالهم لن يلبثوا أن يغطوا نفقاتهم ثم يعينوهم على دفع الإيجار . وهكذا ، ورغم ارتفاع نسبة الوفيات ، زاد سكان أيرلنده من ٣,١٩١,٠٠٠ عام ١٧٥٤ إلى ٤,٧٥٣,٠٠٠ عام ١٧٩١^(٣) .

أما صورة الصناعة فأخذت في الإشراق . ذلك أن الكثير من البروتستانت وبعض الكاثوليك قد أخذوا يحترفون إنتاج الأتيال أو الأصواف أو البضائع القطنية أو الحرير أو الزجاج . وفي الربع الأخير من القرن ، بعد أن حصل جراتان على تخفيف للقيود البريطانية المفروضة على رجال الصناعة الأيرلنديين وعلى التجارة الأيرلندية ، نشأت طبقة وسطى وفرت الركيزة الاقتصادية للسياسة التحريرية والنمو الثقافي . وغدت دبلان من أمهات المراكز في التعليم والموسيقى والدراما والعمارة في الجزر البريطانية . وكانت كلية ترنتي بسبيلها إلى أن تصبح جامعة ، تملك فعلاً قائمة طويلة من الخريجين الممتازين . ولو أن أيرلنده احتفظت بنجومها الساطعة في أرض الوطن - بيرك ، وجولد سميث ، وشريدان ، وسويفت ، وباركلي - لسطعت جنباً إلى جنب مع ألمع الأمم في ذلك العهد . وبعد عام ١٧٦١ جعل نائب الملك دبلان مقره الدائم بدلاً من الاكتفاء بزيارات قصيرة مرة كل عام . وقامت الآن الصروح العامة الشائخة والقصور الأنيقة . ونافست مسارح دبلان مسارح لندن في تفوق إخراجها ، وهنا رتل « مسيا » هندل أول مرة ولقيت أول ترحيب (١٧٤٢) ، وأخرج شريدان التمثيليات الناجحة الكثيرة التي ألقت زوجته بعضها .

وكان الدين بالطبع هو القضية الطاغية في أيرلنده ، وقد حرم المنشقون - أعني المشيخيين ، والمستقلين (البيورتان) ، والمعمدانين - من تقلد الوظائف الحكومية ومن عضوية البرلمان بمقتضى قانون الاختبار ، الذي اشترط في الموظف أو عضو البرلمان قبول سر التناول طبقاً للطقس الأنجليكاني . أما قانون التسامح الصادر في ١٦٨٩ فلم يطبق على أيرلنده . وعبثاً احتج مشيخيو ألتر على هذه القيود ، وهاجر الألوف منهم إلى أمريكا ، حيث قاتل كثيرون منهم بإخلاص في صفوف جيوش الثوار .

وكان ثمانون في المائة من سكان أيرلنده كاثوليكاً ، ولكن لم يكن جائزاً انتخاب أى كاثوليكى لعضوية البرلمان . ولم يملك أرضاً من الكاثوليك إلا قلة . وكان المستأجرون البروتستانت يعطون إيجارات مدى الحياة ، أما إيجارات الكاثوليك فلا تمتد أكثر من إحدى وثلاثين سنة ؛ وكان عليهم أن يدفعوا ثلثى أرباحهم إيجاراً^(٤) . ولم يسمح بالمدراس الكاثوليكية ، ولكن المشولين لم يطبقوا القانون الذى حرم على الأيرلنديين التماس التعليم خارج وطنهم . وقبل بعض الطلاب الكاثوليك فى كلية ترينتى ، ولكنهم لم يستطيعوا نيل درجة علمية . وسمح بالعبادة الكاثوليكية ، ولكن لم يكن هناك وسائل شرعية لإعداد القساوسة الكاثوليك ؛ على أنه جاز للطلاب أن يلتحقوا بالكليات اللاهوتية فى القارة . وقد اكتسب بعض هؤلاء الطلاب ما تحلى به الكهنوت فى فرنسا وإيطاليا من دماثة طبع وتحرر آراء ، فلما عادوا إلى أيرلنده قسماً لاقوا الترحيب على موائد البروتستانت المتعلمين ، وأعانوا على التخفيف من حدة التعصب على الجانبين . فلما أن دخل هنرى جراثان البرلمان الأيرلندى (١٧٧٥) كانت حركة التحرير الكاثوليكى قد اكتسبت تأييد الأوف من البروتستانت سواء فى إنجلترا أو فى أيرلنده .

وفى ١٧٦٠ كان يحكم أيرلنده نائب عن الملك يعينه ملك إنجلترا وهو يستول أمامه ، وبرلمان يسوده الأساقفة الانجليكان فى مجلس اللوردات ويسوده فى مجلس العموم ملاك الأرض وأرباب الرواتب الحكومية من الانجليكان . وكانت الانتخابات البرلمانية خاضعة لنظام الدوائر « العفنة » أو دوائر « الجيب » ذاته المتبع فى إنجلترا . وكانت قلة من كبار الأسر تعرف باسم « المتعهدين » تملك أصوات دوائرها كما تملك بيوتها^(٥) .

وكانت المقاومة الكاثوليكية للحكم الانجليزى متفرقة عديمة الفاعلية . وفى ١٧٦٣ راحت عصابات من الكاثوليك سموا « الصنديان البيض » - نسبة للقمصان البيضاء التى كانوا يرتدونها فوق ملابسهم - تجوب أنحاء الريف وتهدم سياجات الأراضى المسورة ، وتعجز الماشية ، وتهاجم جباة الضرائب أو العشور ؛ ولكن قبض على زعمائهم وشنقوا ، وفشل التمرد . وكانت حركة التحرير « القومى » أحسن حظاً . وفى ١٧٧٦ أخذ أكثر الجنود

البريطانيين من ايرلنده ليحاربوا في أمريكا ، وفي الوقت ذاته اعترى الاقتصاد
الإيرلندي الكساد لانقطاع التجارة مع أمريكا . واتقاء للثورة من الداخل
أو الغزو من الخارج جند بروتستانت ايرلنده جيشاً سموه « المتطوعين » .
وازداد هؤلاء عدداً وسطورة حتى باتوا في ١٧٨٠ قوة رسمية . ويفضل
تأييد هؤلاء المساعدين الذين بلغ عددهم أربعين ألفاً ظفر هنري فلود وهنري
جراتان بانتصاراتهما التشريعية .

وكان كلاهما ضابطاً في جيش المتطوعين ، وخطيباً مفوهاً من أعظم
الخطباء في بلد استطاع أن يبعث ببيرك ورتشرد شريدان إلى إنجلترا ويبقى
فيه رغم ذلك معين لاينضب من البلاغة ، ودخل فلود البرلمان الإيرلندي
في ١٧٥٩ . وقد تزعم حملة للتخفيف عن الفساد في مجلس كان نصف
أعضائه مدينين بالفضل للحكومة . ولكن الرشوة الشاملة هزمته ، فاستسلم
(١٧٧٥) بقبول وظيفة نائب الخازن نظير راتب قدره ٣,٥٠٠ جنيه .

في ذلك العام أنتخبت دائرة في دبلن هنري جراتان لعضوية البرلمان .
وسرعان ما تبوأ مكان فلود زعيماً للمعارضة . وقد أذاع برنامجاً طموحاً ،
قوامه التخفيف عن الكاثوليك الإيرلنديين وتحرير « المنشقين » من ربة قانون
الاختيار ، وإنهاء القيود الانجليزية على التجارة الإيرلندية ، وتوطيد استقلال
البرلمان الإيرلندي . وقد سعى إلى هذه الأهداف بهمة وإخلاص ونجاح .
مما جعله معبود الأمة سواء الكاثوليك والبروتستانت . وفي ١٧٧٨ حصل على
الموافقة على قانون يمكن الكاثوليك من الحصول على إيجارات مدتها تسع
وتسعون سنة ، ومن وراثة الأرض بالشروط التي يرثها البروتستانت . وبعد
عام ، وبناء على إلحاحه ، ألغى قانون الاختيار ، وأمن للمنشقين كامل
الحقوق المدنية . وقد أقنع هو وفلود البرلمان الإيرلندي ونائب الملك بأن
استمرار المعوقات البريطانية للتجارة الإيرلندية من شأنه أن يؤدي إلى
العنف الثوري . وكان اللورد نورث ، رئيس الحكومة البريطانية آنئذ ،
يحيد إلغاء هذه القيود ، ولكن رجال الصناعة الانجليز انهالوا عليه بوابل
من الالتماسات ضد الإلغاء ، فأذعن لهم . وبدأ الإيرلنديون يقاطعون البضائع
البريطانية ، وتجمع « المتطوعون » أمام مبنى البرلمان الإيرلندي وفي أيديهم

السلاح ، وعلى مدافعهم عبارة تقول « حرية التجارة أو هذا » . وسحب رجال الصناعة الانجليز معارضتهم بعد أن أضرت بهم المقاطعة ، وأصدر قانون حرية التجارة (١٧٧٩) .

ثم ألح جراتان بعد هذا في طلب الاستقلال للبرلمان الإيرلندي . ففي مطلع عام ١٧٨٠ اقترح أن يكون الملك انجلترا وحده ، بموافقة برلمان ايرلنده ، الحق في التشريع لإيرلنده ، وأن بريطانيا العظمى وإيرلنده لا يوحدهما سوى رباط ماليتهما المشترك ، ولكن اقتراحه هزم . فأعان المتطارعون الذين اجتمع منهم في دنجانون ٢٥,٠٠٠ مقاتل (فبراير ١٧٨٢) انه لا ولاء لانجلترا إلا إذا منحت إيرلنده الاستقلال التشريعي . وفي مارس سقطت وزارة اللورد نورث التي شاخت وخلفه في الوزارة روكنجهام وفوكس ، وكان المركز كورنو اليس قد استسلم أثناء ذلك في يوركنون (١٧٨١) ، وانضمت فرنسا وأسبانيا إلى أمريكا في الحرب ضد انجلترا . ولم يكن في وسع بريطانيا أن تواجه ثورة ايرلندية في هذا الوقت . وعليه ففي ٦ ابريل ١٧٨٢ أعلن البرلمان الإيرلندي بزعامه جراتان استقلاله التشريعي ، وبعد شهر وافقت انجلترا على هذا التنازل . وقرر البرلمان الإيرلندي منحة لجراتان قدرها ١٠٠,٠٠٠ جنيه ، وكان رجلاً فقيراً نسبياً ، فقبل نصفها .

كان هذا بالطبع انتصاراً لبروتستنت إيرلنده لا لكاثوليكها . فلما شرع جراتان - بتأييد قوى من الأسقف الانجليكاني فردريك هرفي - في حملة لإحراز قسط من التحرير للكاثوليك كان قصارى ما استطاعه (فيما يسميه المؤرخون « برلمان جراتان) هو الحصول على حق التصويت للملاك الكاثوليك (١٧٩٢) ، فحصلت هذه القلة على حق الانتخاب وبت دون حق انتخابهم لعضوية البرلمان أو تعيينهم في الوظائف البلدية أو القضائية . وذهب جراتان إلى انجلترا ، وحصل على انتخابه عضواً في البرلمان البريطاني ، وهناك واصل حملته . ومات عام ١٨٢٠ ، قبل أن يجيز البرلمان قانون التخفيف عن الكاثوليك بتسعة أعوام ، وهو القانون الذي سمح للكاثوليك بعضوية البرلمان الإيرلندي ، حقاً أن العدالة ليست عمياء فقط ؛ إنها أيضاً عرجاء .

٢ - الخلفية الاسكتلندية

عندما أدمج اتحاد عام ١٧٠٧ اسكتلنده مع انجلترا بواسطه برلمان مشترك، رددت لندن على سبيل النكته أن الحوت قد ابتلع يونان (يونس) ؛ وعندما أدخل بيوت (١٧٦٢ وما بعدها) عشرين من الأسكتلنديين في الحكومة البريطانية تدمر الظرفاء لأن يونان أخذ في ابتلاع الحوت^(٦) . أما من الناحية السياسية فإن الحوت انتصر . فقد ضاع النبلاء الاسكتلنديون الستة عشر ونواب العموم الخمسة والأربعون وسط ١٠٨ نبيلاً و ٥١٣ نائباً انجليزياً . وأسلمت اسكتلنده سياستها الخارجية ، وإلى حد كبير اقتصادها ، إلى تشريع يسوده المال الانجليزي والعقول الانجليزية . ولم ينس البلدان عدائهما السابق . فالاسكتلنديون يشكون من أسباب التفرقة التجارية بين يونان والحوت ، وصموئيل جونسن ينوب عن الحوت في عضه يونان بإصرار شوفيني .

وكانت اسكتلنده تضم في عام ١٧٦٠ من السكان نحو ١,٢٥٠,٠٠٠ نسمة . وكانت نسبة المواليد عالية ، ولكن نسبة الوفيات لحقت بها . وقد كتب آدم سمث حوالي ١٧٧٠ يقول : « قيل لي إنه ليس من غير المألوف في إقليم المرتفعات الاسكتلندية لأم ولدت عشرين طفلاً ألا يبقى اثنان منهم أحياء »^(٧) . وكان رعوساء القبائل في الإقليم يملكون الأرض كلها تقريباً خارج المدن ، ويتركون الزراع فقراء فقراً بدائياً على تربة صخرية تبدل بوابل من المطر ينهمر صيفاً وبتلوج الشتاء تهطل من سبتمبر إلى مايو . وقد زادت الإيجارات مراراً - فرفعت في إحدى المزارع من خمسة جنيهات إلى عشرين خلال خمسة وعشرين عاماً^(٨) . وهاجر كثير من الفلاحين إلى أمريكا بعد أن رأوا أن لا مهرب من الفقر في وطنهم ، وهكذا « يستطيع زعيم القبيلة الجشع أن يحيل صنيعته برية فقراء » على حد قول جونسن :^(٩) وكان الملاك يحتجون بهبوط قيمة العملة ذريعة لرفع الإيجار . وكانت الأحوال أسوأ حتى من هذا في مناجم الفحم والملح ، حيث كان العمال حتى عام ١٧٧٥ يربطون بأعمالهم حتى يموتوا^(١٠) .

أما في مدن إقليم المنخفضات فإن الثورة الصناعية جلبت الرخاء لطبقة
وسطى متسعة ومغامرة . وانتشرت في جنوب غربي اسكتلنده مصانع
النسيج الكثيرة . وبفضل الصناعات والتجارة الخارجية زاد سكان جلاسجو
من ١٢,٥٠٠ في عام ١٧٠٧ إلى ثمانين ألفاً في عام ١٨٠٠ ؛ وكانت تضم
ضواحي غنية ، وسباني ذات شقق في أحياء فقيرة مزدحمة ، وجامعة ،
وفي ١٧٦٨ - ٩٠ شقت قناة ربطت نهري كلايد وفورث ، فأنشأت بذلك
طريقاً تجارياً مائياً من أوله لآخره بين الجنوب الغربي الصناعي والجنوب
الشرقي السياسي . وكانت ادنبره - التي ناهز سكانها خمسين ألفاً في ١٧٤٠ -
قلب حكومة اسكتلنده وثقافتها ومؤسساتها . وكانت تكل أسرة اسكتلندية
ميسورة الحال تتطاع إلى قضاء جزء من السنة على الأقل فيها ؛ وإليها أتى
بوزويل وبيرنز ، وفيها عاش هيوم وروبرتسن وريبورن ، وهنا ظهر
محامون ذائعو الصيت مثل ايرسكينز ، وقامت جامعة ذات مكانة مرموقة ،
وجمعية ادنبره المالكية . وهنا كان المقر الرئيسي للمسيحية الاسكتلندية .

وكان الكاثوليك الرومان قلة ، ولكن عددهم كان كما رأينا كافياً
لإحداث الزعر في بلد مازال يتجاوب بإصدااء دعوة يوحنا فوكس . وكان
للكنيسة الأسقفية أتباع كثيرون بين سراة القوم الذين أعجبهم الأساقفة
الإنجليكان وطقوس التناول الانجليكانية . غير أن ولاء السواد الأعظم كان
لكنيسة اسكتلنده ، « الكيرك البرزبتيرييه » (المسيحية) التي رفضت نظام
الأساقفة ، واحتزمت الطقوس إلى أدنى حد ، ولم تقبل في الدين والأخلاق
حكماً غير حكم مجالس أبرشياتها ، وشيوخ أقسامها ، ومجامع أقاليمها ،
وجمعياتها العامة . ولعله لم يوجد بلد آخر في أوربا - باستثناء أسبانيا - تشرب
شعبه اللاهوت بمثل هذا العمق . وكان في استطاعة مجلس الكنيسة المؤلف
من شيوخها وقسيسها أن يفرض الغرامات ويوقع العقوبات على المنحرفين
المهرطقين ، وأن يحكم على الزناة بالوقوف واحتمال التوبيخ العلني أثناء
الخدمة الدينية ، وقد حاق بروبرت بيرنز وجين آرمر مثل هذا العقاب في
جلسة للكنيسة في ٦ أغسطس ١٧٨٦ . وسيطر الإيمان بالآخرويات الكلتية
على عقول الجماهير فجعلت حرية الفكر خطراً على الحياة والأجساد ؛ غير

أن ليفياً من القساوسة « المعتدلين » يتزعمهم روبرت ولسن وآدم فرجسون ووليم روبرتسن خففوا من تعصب الشعب تخفيفاً كفى لترك ديفد هيوم يموت موتة طبيعية .

وربما كان الدين الصارم لازماً للتصدي لعربدة شعب تدفعه قسوة البرد إلى الشرب حتى يثمل ، ويعانى من قسوة الفقر ما يجعل لذته الوحيدة في الجرى وراء الجنس . وسيرة بيرنز دليل على أن الرجال كانوا يسكرون ويفسقون رغم الشيطان والقساوسة ، وأن الفتيات الراغبات لم يكن نادرات . وقد طرأ على القوم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر اضمحلال ملحوظ في الإيمان وفي التمسك بالفضائل التقليدية . ولاحظ وليم كريتش وهو مصور إدنبري ، أن يوم الأحد في سنة ١٧٦٣ كان يوم تعبد ديني ، ولكن في ١٧٨٣ « لقي الحضور إلى الكنيسة إهمالاً شديداً ، خصوصاً من الرجال » ، وكانت الشوارع في الليل تضيح بالشباب المنحل المشاغب « في سنة ١٧٦٣ هناك خمسة مواخير أو ستة . . . وفي ١٧٨٣ ازداد عدد المواخير عشرين ضعفاً ، وازداد عدد نسوة المدينة أكثر من مائة ضعف . وابتلى كل حي في المدينة وضواحيها بأعداد غفيرة من الإناث اللاتي استسلمن للرزيلة » (١١) . وكانت لعبة الجواف تصرف الرجال عن الكنيسة إلى اللقاءات أيام الأحاد ، أما في باقي أيام الأسبوع فالرجال والنساء يرقصون (وكان الرقص من قبل يعد خطيئة) ، ويذهبون إلى المسارح (وكان الذهاب إليها لا يزال يعد خطيئة) ، ويختلفون إلى سباقات الخيل ، ويقامرون في الحانات والأندية .

وكانت الكنيسة أهم مصدر للديمقراطية والتعليم . فكان شعبها يختار شيوخها ، وكان ينتظر من القسيس (الذي يختاره عادة راع أو نصير) أن يدير مدرسة في كل أبرشيته . وكان الجوع للتعليم شديداً . وكانت جامعة سانت أندروز ، من بين الجامعات الأربع ، قد اضمحلت ، ولكنها تزعم أنها تملك خير مكتبة في بريطانيا . وقد وجد جونسن جامعة أبردين مزدهرة في ١٧٧٣ . أما جامعة جلاسجو فضمت بين أساتذتها جوزف بلاك الفيزيائي ، وتوماس ريد الفيلسوف ، وآدم سميث الاقتصادي ، فضلاً عن إيوانها لجيمس وات . وأحدثت الجامعات الأربع هي جامعة إدنبره ، ولكنها كانت تضطرب بما أتت به حركة التنوير الاسكتلندي من إثارة .

٣ - التنوير الاسكتلندي

لا يمكن أن يعلل تفجر العبقرية الذي أضاء اسكتلنده بين مبحث هيوم
« في الطبيعة البشرية » (١٧٣٩) وكتاب بوزويل « حياة جونسن » (١٧٩١)
ألا بنمو تجارتها مع انجلترا والعالم وتقدم الصناعة في إقليم السهول . ففي
الفلسفة نبع فرانسيس هتشينسون ، وديفيد هيوم ، وآدم فيرجسون ؛ وفي
الاقتصاد آدم سميث ؛ وفي الأدب جون هيوم (١٢) ، وهنري هيوم (اللورد
كيمس) ، ووليم روبرتسن ، وجيمس مكفرسن ، وروبرت بيرنز ،
وجيمس بوزويل ؛ وفي العلوم جوزف بلاك ، وجيمس وات ، ونيفيل
ماسكين ، وجيمس هاتن ، واللورد مونبودو (١٣) ؛ وفي الطب جون ووليم
هنتر : (١٤) هؤلاء كوكبة تضارع النجوم التي سطعت في انجلترا حول
« اللب الأكبر » (جونسن) ! وقد ألف هيوم وروبرتسن وغيرهما في
إدنبره « جمعية من الصفوة » للمناقشات الأسبوعية في الأفكار . واتصل
هؤلاء الرجال وأشباههم بالفكر الفرنسي لا الإنجليزى ، من جهة لأن
فرنسا كانت منذ قرون مرتبطة باسكتلنده ، ومن جهة أخرى لأن الحصوة
المستطيلة بين الانجليز والاسكتلنديين عاقت اندماج الثقافتين . وكان هيوم
مسيء الظن بالفكر الانجليزى في جيله ، إلى أن صدر كتاب « اضمحلال
الامبراطورية الرومانية وسقوطها » في عام موته فرحب بصدوره شاكرآ .

ولقد وفيينا من قبل ديننا لهتشينسون وهيوم (١٥) . فلنلق الآن نظرة على
عدو هيوم الكريم النفس ، توماس ريد ، الذي كافح ليرد الفلسفة من
الميتافيزيقا المثالية إلى قبول واقع موضوعى . وقد ألف وهو يدرس في
أبردين وجلاسجو كتابه « بحث في العقل البشرى حول مبادئ الفطرة
السليمة » (١٧٦٤) ، وقبل أن ينشره أرسل المخطوطة إلى هيوم مشتموعة
بخطاب مهذب يحمل تحياته ، ويشرح أسفه على اضطراره لمعارضة شكرية
صاحبه الأكبر سنآ . ورد عليه هيوم بلطفه المعهود ، وطلب إليه أن ينشر
الكتاب دون خوف من ملامة (١٦) .

وكان ريد قد سلم من قبل برأى باركلي القائل بأننا نعرف الأفكار فقط ،

ولا نعرف الأشياء أبداً . فلما أكد هيوم بمثل هذا الاستدلال أننا نعرف الحالات العقلية فقط ، دون أن نعرف مطلقاً « عقلاً » ملحقاً بها ، أحس ريد أن مثل هذا التحليل المثقل بالتفاصيل غير الهامة يقوض كل تفرقة بين الصدق والكذب ، وبين الحق والباطل ، وكل إيمان بالله أو الخلود . وذهب إلى أنه اضطر لتنفيذ آراء هيوم اتقاء هذه الكارثة ، ولكي يفند آراء هيوم كان عليه أن يرفض باركلي .

وعليه فقد سخر من الفكرة القائلة بأننا لا نعرف غير أحاسيسنا وأفكارنا ، فنحن على العكس من هذا نعرف الأشياء مباشرة وللتو ، و « من الإسراف في الرهافة » فقط أن نخلل تجربتنا مع وردة مثلاً ، فنردها إلى حزمة من الأحاسيس والأفكار ، والحزمة حقيقية ، ولكن الوردة أيضاً حقيقية ، وهي تحتفظ ببقاء ثابت بعد أن تتوقف إحساساتنا بها . والصفات الأولية - كالحجم والشكل والصلابة والنسيج والثقل والحركة والعدد - تنتمي بالطبع إلى العالم الموضوعي ، ولا تتغير ذاتياً إلا بفعل الأوهام الذاتية ، وحتى الصفات الثانوية لها مصدر موضوعي بقدر ما تنشأ الأحاسيس الذاتية عن الأصول الطبيعية أو الكيميائية في الشيء أو البيئة - الرائحة ، أو الطعم أو الدفء ، أو اللمعان ، أو اللون ، أو الصوت (١٧) .

والإدراك الفطري السليم ينبئنا بهذا ، غير أن « مبادئ الإدراك الفطري السليم ليست أهواء الجماهير الجاهلة ، إنما هي المبادئ الغريزية » التي يرشدنا تكوين طبيعتنا (أي الإدراك الذي نشترك فيه كلنا) إلى الإيمان بها ، والتي يتحتم علينا بالضرورة التسليم بها في الشؤون المشتركة للحياة (١٨) ، وبالقياس إلى هذا الإحساس العام الذي يختبر كل يوم ويؤكد ألف مرة ، تكون استدلالات الميتافيزيقا الخيالية مجرد لعبة يلعبها المرء في وحدته التي يهرب فيها من العالم ؛ بل إن هيوم نفسه ، باعترافه ، كان يأتى عنه هذه اللعبة العقلية إذا غادر حجرة مكتبه (١٩) . ولكن هذا الرجوع إلى الحس المشترك يرد الواقع إلى العقل : فليست الأفكار وحدها هي الموجودة ، فهناك كائن حي ، وعقل ، وذات ، لها الأفكار . واللغة نفسها شاهد على هذا الاعتقاد العام : فلعل لغة ضمير مفرد للمتكلم ، ف « أنا » هو الذي يشعر ، ويتذكر ،

ويفكر ، ويجب : « لقد بدا أن من الطبيعي جداً التفكير في أن « البحث في الطبيعة البشرية » احتاج إلى مؤلف يكتبه ، ومؤلف في غاية الذكاء والبراعة ، ولكن يقال لنا الآن أنه ليس إلا مجموعة من الأفكار اجتمعت معاً ورتبت نفسها بارتباطات وانجذابات معينة » (٢٠) .

وقرأ هيوم هذا كله بابتهاج وود ، ولم يستطع أن يقبل نتائج ريد اللاهوتية ، ولكنه احترم مزاجه المسيحي ، ولعله أحس بالراحة في دخيلة نفسه حين عرف أن العالم الخارجي موجود على كل حال ، برغم باركلي ، وأن هيوم موجود برغم هيوم . كذلك استشعر الجمهور القارئ أيضاً الراحة ، واشترى ثلاث طبعات من كتاب ريد « البحث » قبل موته . وكان بوزويل من بين سرى عنهم ، فهو ينبئنا بأن كتاب ريد « هدأ عقلي الذي انتابه القلق الشديد من طول التفكير العويص بالأسلوب التجريدي الشكوكي » (٢١) .

وأضاف الفن اللون إلى عصر النور الاسكتلندي . فالأخوة « آدم » الأربعة الذين تركوا بصمتهم على العمارة الانجليزية ، كانوا اسكتلنديين . وقد هاجر ألن رمزي (بن الشاعر ألن رمزي) إلى لندن (١٧٥٢) بعد أن أنفق في نيل التقدير في وطنه ادنبره ، وبعد سنوات من الكدح غير « مصوراً عادياً » للملك ، مما أثار حفيظة الفنانين الانجليز . وقد رسم صورة حسنة لجورج الثالث (٢٢) ، وأحسن منها لزوجته هو (٢٣) . غير أن انخلاع ذراعه اليمنى أنهى احترافه للتصوير .

أما السر هنري ريبورن فكان رينولدز اسكتلنديه . وكان ابناً لرجل صناعة في ادنبره ، علم نفسه التصوير بالزيت ، ورسم أرملة وارثة بلغ من رضاها عن صورتها أنها تزوجته ومهرته بثروتها . وبعد أن درس عامين في إيطاليا عاد إلى ادنبره (١٧٨٧) ، وسرعان ما تكاثرت زبائنه فضاق وقته عن رسمهم ؛ رسم روبرتسن ، وجون هيوم ، ودوجالد ستيوارت ، وولتر سكوت ، وأفضل صورته صورة اللورد نيوتن - جسد هائل ، ورأس ضخم ، وشخصية من حديد امتزج بالباسان . وعلى النقيض لاحظ الجمال المتواضع الذي وجدته ريبورن في زوجته (٢٤) . وكان أحياناً ينافس رينولدز

في تصوير الأطفال ، كما نرى في لوحته « أطفال دراموند » المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفنون . وقد أنعم على ريبورن بلقب الفروسية في ١٨٢٢ ، ولكنه مات بعد عام بالغاً السابعة والستين .

ثم تفوق التنوير الاسكتلندي في مؤرخيه . فقد شارك آدم فيرجسن في تأسيس دراسة علم الاجتماع والسيكولوجية الاجتماعية بكتابه « مقال في تاريخ المجتمع المدني » (١٧٦٧) الذي طبع سبع مرات في حياته . والتاريخ - في رأيه - لا يعرف الإنسان إلا عائشاً في جماعات ، فإن شأنا فهم هذا الإنسان وجب أن نراه مخلوقاً اجتماعياً ولكنه متنافس - مركب من عادات اجتماعية ورغبات فردانية . وتطور الخلق والتنظيم الاجتماعي كلاهما يحدده تفاعل هاتين النزعتين المتعارضتين ، ونادر أن تتأثر بأفكار الفلاسفة . والمنافسة الاقتصادية ، والخصومات السياسية ، وألوان التفرقة الاجتماعية ، والحرب ذاتها - كل أولئك مركب في طبيعة البشر ، وسيظل كذلك أبداً ، وهو يعمل بوجه عام على تقدم النوع الإنساني .

وكان فيرجسن في زمانه لا يقل شهرة عن آدم سميث ، ولكن صديقيهما وليم روبرتسن فاقهما شهرة . ونحن يذكر أمنية فيلاندا التي تمنها لشيلر مؤرخاً ، بأن « يرقى إلى مستوى هيوم ، وروبرتسن ، وجبون » (٢٥) . وقد تساءل هوراس ولبول في ١٧٥٦ : « أيمكن أن يخطر لنا أننا نفتقد مؤلفين في التاريخ مادام مستر هيوم ومستر روبرتسن أحياء ؟ . . ان كتابة روبرتسن تمتاز بأصني ما قرأت أسلوباً وأعظمه نزاهة » (٢٦) . وكتب جبون في « مذكراته » يقول : « ان إنشاء الدكتور روبرتسن الذي بلغ الكمال ، ولغته المشبوبة ، ووقفاته المحكمة ، أثرت في إلى حد التطوع الطموح إلى تأثر نخطواته يوماً ما » (٢٧) ، وقال « ان الطرب يهزني كلما وجدت نفسي معدوداً ضمن ثلوث المؤرخين البريطانيين » مع هيوم وروبرتسن (٢٨) . وقد عد هذين المؤرخين مع جويكارديني ومكيافالي أعظم المؤرخين المحدثين ، ثم وصف روبرتسن في تاريخ لاحق بأنه « أول مؤرخي العصر الحاضر » (٢٩) .

كان روبرتسن ، مثل ريد ، قسيساً وابن قسيس . عين راعياً لكنيسة جلادزموير وهو في الثانية والعشرين (١٧٤٣) ثم أنتخب بعد عامين لعضوية الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية . وأصبح فيها قائد المعتدلين ، وقد حمى المهترطين أمثال هيوم . وبعد ست سنوات من الجهد الشاق والدرس الدعوى للوثائق والمراجع ، أصدر عام ١٧٥٩ « تاريخاً لاسكتلنده في عهد الملكة ماري وجيمس السادس حتى ارتقائه عرش إنجلترا » ، واختتم في تواضع حيث بدأ هيوم كتابه « تاريخ إنجلترا » . وقد أهدى الكتاب اسكتلنده لتجنبه عبادة ماري ملكة الاسكتلنديين ، وأهدى الانجليز بأسلوبه - رغم أن جونسن أضحكه أن يجد فيه بعض الألفاظ الثقيلة الجونسونية الطابع . وقد طبع الكتاب تسع طبعات في ثلاثة وخمسين عاماً .

على أن رائعة روبرتسن الكبرى كانت كتابه « تاريخ حكم الامبراطور شارل الخامس » (١٧٦٩) ذا المجلدات الثلاثة . وفي وسعنا الحكم على مدى السمعة التي حظى بها من الثمن الذي نقده عليه الناشرون وهو ٤,٥٠٠ جنيه بالقياس إلى ٦٠٠ جنيه تلقاها عن تأليف تاريخ اسكتلنده . وقد أثنت أوروبا على الكتاب الجديد في ترجماته المختلفة . وكانت كاترين الكبرى تحمله معها في رحلاتها الطويلة ، وقد قالت « إنني لا أكف عن قراءته أبداً ، خصوصاً المجلد الأول منه » (٣٠) ، وقد أهدى كتابها كما يههنا كلنا ذلك التمهيد الطويل الذي استعرض التطورات الوسيطة التي انتهت بمجيء شارل الخامس . والكتاب تقدم نتيجة الأبحاث اللاحقة ، ولكن ما من عرض لاحق للموضوع يمكن أن يباريه بوصفه أثراً أدبياً . ومن دواعي السرور أن نلاحظ أن الشناء الذي ظفر به الكتاب ، والذي كان أعظم كثيراً من التفريط الذي ناله « تاريخ » هيوم ، لم يوهن ما كان بين القسيس والزنديق من صداقة وود .

وأشهر من الإثنين جيمس مكفرسن ، الذي سوى جوته بينه وبين هومر ، ورفع نابليون فوق هومر (٣١) في ١٧٦٠ أعلن مكفرسن الذي كان آنذاك في عامه الرابع والعشرين أن مباحة على شيء من الطول والروعة تحويها مخطوطات غيلية متفرقة سيضطلع بجمعها وترجمتها إن أتيح له مدد من المال . وجمع المال فيرجسن وهيوبلير (وهو قسيس مشيخي مفوه

من ادنبره) . وجاب مكفرسن واثنان من الدارسين الغيليين أرجاء المرتفعات الاسكتلندية وجزر الهيريد ، وجمعوا المخطوطات القديمة ، وفي ١٧٦٢ نشر مكفرسن كتابه « فنجال ، ماحمة قديمة في ستة أجزاء . . . ألفها أوسيان ، بن فنجال ، وترجمت عن اللغة الغيلية » . وبعد عام نشر ماحمة أخرى ، اسمها « تيمورا » زعم أنها من تأليف أوسيان ، وفي ١٧٦٥ نشر الملحمتين بعنوان « أعمال أوسيان » .

أما أوسيان هذا فهو كما تزعم الأسطورة (الإرلندية والاسكتلندية) الإبن الشاعر للمحارب فن ماكوهيل (٣٢) ، ويروون أنه عمر ثلاثمائة سنة ، وامتد به الأجل حتى أعرب عن معارضته الوثنية للاهوت الجديد المجلوب إلى إرلنده على يد القديس باتريك . وبعض القصائد المنسوبة له احتفظ بها في ثلاثة مخطوطات من القرن الخامس عشر ، خصوصاً في « كتاب لزهور » الذي جمعه جيمس ماكريجور في ١٥١٢ ، وكان مكفرسن يملك هذه المخطوطات (٣٣) . وقد روى فنجال كيف دعا المقاتل الشاب ، بعد أن هزم غزاة إرلنده الأسكتلنديين ، هزلاء الغزاه إلى مأدبة ونشيد سلام ، والقصة مروية رواية تنبض بالحياة ، يدفها تغزل الاسكتلنديين في الفتيات الإيرلنديات . يقول أحد المقاتلين لمورنا ابنة الملك كورماك ما أشبهك بالثالج فوق المرج . ان شعرك كضباب كرو ولا حين يتجمد فوق الربى ، حين يتألق لشعاع الغرب ! ونهداك صخرتان ناعمتان تريان من « برانو » ذى الجداول ، وذراعاك كعمودين ناصعي البياض في أبهاء فنجال العظيم » (٣٤) . ثم نلتقى بنهود أخرى ، أقل تحجراً : « نهد أبيض » و « نهد نافر » و « نهد ممتلى » (٣٥) ، وهي تاهى القارىء قليلاً ، ولكن القصة لا تلبث أن تنصرف عن الحب إلى أحقاد الحرب .

وأثار « أوسيان » مكفرسن ضجة في اسكتلنده ، وانجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا . فرحب به الاسكتلنديون صفحة من ماضيهم الوسيط البطولي ، وكانت إنجلترا مهياًة لتقبل رومانس الأسطورة الغيلية وهي التي كانت في ١٧٦٥ ترحب بكتاب يرسي « مخلفات من الشعر الانجلىزى القديم » . أما بجوته فتد أرانا في ختام « آلام فرتر » (١٧٧٤) بطاله يقرأ للوتى ست

صفحات من أوسيان . وكانت تحوى قصة دورا العذراء الرقيقة يروها أبوها أومين : كيف أغرتها « الأرض » الشريرة واقتادتها إلى صخرة فى البحر بوعدھا بأن حبیبھا أرمار سيلقاھا هناك ، وكيف تركتها الأرض على الصخرة ، وما من حبیب أتى . « فرفعت صوتھا ، ونادت على أخيھا وأبيھا : ارندال ! أرمين ! » وجدف ارندال لينقدها ، ولكن سھما أطلقه عدو مخبئ فثا ك به ، وجاء حبیبھا أرمار إلى الشاطئ ، وحاول أن يسبح إلى دورا ، « ولكن ريحاً عاصفة من التل طغت فجأة على الأمواج ، فغاص فى اليم ، ولم يطف بعدها » . أما الأب الذى كان أعجز وأضعف من أن يخف لنجدتها فأخذ يصرخ مرتعباً يائساً :

« على الصخرة التى يلطمھا اليم سمعنا ابنتى تستغيث وهى وحيدة . وكانت صرخاتها مترددة عالية فما الذى فى وسع أبيھا أن يفعله ؟ لقد وقفت على الشاطئ الليل كله وأبصرتها على ضوء القمر الكليل . . . وكان للريح ضجيج والمطر ينهمر وابلا على التل . وقبل أن ينبج الصبح كان صوتھا قد نخت ، ثم تلاشى كأنه نسيم المساء بين عشب الصخور . لقد قضت كمدأ وحزنا .

« لقد ضاعت قوتى فى الحرب ، وسقطت كبرياتى بين النساء ، وحين تهب العواصف العاتية ، وحين ترفع ریح الشمال الموج عالياً أجلس إلى الشاطئ الصاخب وأنظر إلى الصخرة القاتلة . وكثيراً ما أرى أشباح أطفالى على ضوء القمر الغارب . . . أما تكلم أحدكم رحمة بى ! » (٣٦) .

ولم يلبث أن ثار جدل حول الملحمة : فهل « أوسيان » حقاً ترجمة عن الملاحم الغيلية العتيقة ، أم أنه سلسلة من القصائد نظمها مكفرسن ودسها على شاعر ربما لم يعش قط ؟ لقد صدق دعوى مكفرسن هرذر وجوته فى ألمانيا ، وديدور فى فرنسا ، وهيوبلير ولورد كيمز فى اسكتلنده . ولكن فى ١٧٧٥ أعلن صموئيل جونسن فى كتابه « رحلة إلى جزائر اسكتلنده الغربية » بعد تحقيقات فى الهريد (١٧٧٣) رأيه فى القصائد الأوسيانية : « أعتقد أنها لم توجد قط فى أى صورة إلا الصورة التى رأيناها عليها . فلم

يستطيع المحرر ، أو المؤلف ، إبراز الأصل قط ، وإن يستطيع ذلك غيره كائناً من كان « (٣٧) . وكتب مفكرسن جونسن يقول إن شيخوخة الرجل الانجليزي وحدها هي التي تحميه من تحديه للمبارزة أو من ضربه « علقه » ، ورد جونسن « أرجو ألا توفني أبداً سفالة وشب عن كشف ما أعتقد أنه غش وزيف . . . لقد كان رأي في كتابك أنه منقول ، وما زال رأي فيه كذلك . . . أما غضبك فإني أتحداه » (٣٨) . وشارك هيوم وهوراس ولبول وغيرهما جونسن شكوكه . ولما طالب إلى مكفرسن أن يبرز الأصول التي زعم أنه ترجمها تباطأ ، ولكنه ترك عند موته مخطوطات ملاحم غيلية ، استعمل بعضها في وضع حبكة قصائده وتقرير طابعها . وقد أخذ عن هذه النصوص الكثير من العبارات والأسماء ، ولكن الملحمتين كانتا من إنشائه .

على أن الغش لم يكن بالشدة أو الشناعة اللتين زعمهما جونسن : فلنسمه جوازاً شعرياً على نطاق واسع جداً . والمالمحمتان الشعريتان الثريتان ، إذا أخذناهما في ذاتهما ، تبرران بعض ما حظيتا به من إعجاب . فقد أعربتا عن جمال الطبيعة وأهوالها ، وعن ضراوة الحقد ، وعن لذة الحرب . وكان فيهما نزعة عاطفية مسرفة في الرقة ، ولكنهما جمعتا إليها بعض السمو الذي أوحى به السر توماس ما لورى قبل ذلك في قصيدته « موت آرثر » (١٤٧٠) . وقد صعدتا إلى قمة الشهرة على الموجة الرومانتيكية التي غمرت حركة التنوير .

٥ - آدم سمث

كان آدم سمث بدأه يوم أعظم شخصية في التنوير الاسكتلندي . وقد مات أبوه قبل مولده (١٧٢٣) بشهور ، وكان مراقباً للجارك في كركلدي . وكانت المغامرة الوحيدة تقريباً في حياة رجل الاقتصاد يوم نخطمه الغجر وهو طفل في الثالثة ثم تركوه على جانب الطريق بعد أن طور دوا . وبعد أن تلقى آدم بعض التعليم المدرسي في كركلدي ، واختلف إلى محاضرات هتشن في جلاسجو ، ذهب إلى أكسفورد (١٧٤٠) حيث وجد المدرسين كسالي تافهين كما سيصفهم جبون في ١٧٥٢ . وعلم سمث نفسه بالاطلاع ، ولكن سلطات الكلية صادرت النسخة التي اقتناها من مبحث هيوم في الطبيعة

البشرية بحجة أن الكتاب لا يصلح إطلاقاً لشباب مسيحي . وكفته سنة واحدة مع أساتذة الكاوية ؛ وكان أكثر حياً لأمه ، فعاد إلى كركلدى ، وواصل استغراقه في القراءة . وفي ١٧٤٨ انتقل إلى ادنبره ، حيث حاضر مستقلاً في الأدب والبيان . وقد أعجبت محاضراته بعض ذوى النفوذ ، فعين في كرسي المنطق بجامعة جلاسجو (١٧٥١) ، وأصبح بعد عام أستاذ الفلسفة الأخلاقية — التي شملت الأخلاق ، والقانون ، والاقتصاد السياسي . وفي ١٧٥٩ نشر استنتاجاته الأخلاقية في كتابه « نظرية العواطف الأخلاقية » ، الذي حكم الكل بأنه « أهم كتاب كتب في هذا الموضوع الشائق » (٤٠) متجاهلاً في هذا الحكم أرسطو وسبينوزا .

وقد استخلص سمث أحكامنا الأخلاقية من ميلنا التلقائي لتخييل أنفسنا في موقف الغير ؛ فنحن بهذا نردد أصداً عواطفهم ، وبهذا التعاطف ، أو المشاركة الوجدانية ، نحمل على الاستحسان أو الاستهجان (٤١) . والحس الأخلاقي متأصل في غرائزنا الاجتماعية ، أو في العادات العقلية التي نتخذها بوصفنا أفراداً في مجتمع ، ولكنه لا يتعارض مع محبة الذات . وقمة التطور الأخلاقي للإنسان يبلغها حين يتعلم أن يحكم على نفسه كما يحكم على الآخرين ، « وأن يسوس نفسه طبقاً للمبادئ الموضوعية — مبادئ الإنصاف ، والقانون الطبيعي ، والحكمة ، والعدالة » (٤٢) . والدين ليس المصدر ولا الركيزة لعواطفنا الأخلاقية ، ولكن هذه العواطف تتأثر تأثراً قوياً بالإيمان بانبعث الناموس الأخلاقي من إله في يده الثواب والعقاب (٤٣) .

وفي ١٧٦٤ عين سمث — الذي بلغ الآن الحادية والأربعين — معلماً خاصاً ومرشداً يرافق الدوق بكليوتمش البالغ ثمانية عشر ربيعاً في سياحة في أوروبا ، وقد أتاح له الأجر الذي كان يتقاضاه في هذه المهمة — وهو ٣٠٠ جنيه في العام — الاطمئنان والفراغ اللذان أعاناه على تأليف رائعته التي بدأ كتابتها خلال إقامته في تولوز ثمانية عشر شهراً . وقد زار فولتير في فرنيه ، والتقى في باريس بهلفتيوس ودالامبير وكرتيه وطورجوجو . فلما عاد إلى اسكتلنده عام ١٧٦٦ عاش السنوات العشر التالية قانعاً مع أمه في كركلدى عاكفاً

على تأليف كتابه . وظهر الكتاب واسمه « بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها » عام ١٧٧٦ ، وقد رحب به هيوم في رسالة بعث بها إلى سمث ومات بعدها بقليل .

وكان هيوم نفسه في مقالاته قد أعان على تشكيل آراء آدم سمث الاقتصادية والأخلاقية جميعاً . فقد سخر من « المذهب المركنتلي » الذي حيد التعريفات الجمركية الحامية ، والاحتكارات التجارية ، وغيرها من الإجراءات الحكومية التي يراد بها ضمان زيادة الصادرات على الواردات ، والاستثمار من المعادن النفيسة باعتبارها الثروة الأساسية الأمة . وقال هيوم ان هذه السياسة أشبه بالجهد لمنع الماء من بلوغ مستواه الطبيعي ، ثم عاد لتحرير الاقتصاد من « المعوقات التي لا يحصى عددها . . . والرسوم التي فرضها على التجارة جميع أمم أوروبا وفاقها كلها انجلترا في هذا المضمار » (٤٤) . وكان سمث بالطبع على بينة من الحملة التي شنّها كرتيه وغيره من الفزيوقراطيين الفرنسيين على اللوائح والأنظمة المعوقة للصناعة والتجارة والتي فرضتها نقابات الطوائف الحرفية والحكومات ، ومطالبتهم بسياسة من عدم التدخل ترك الطبيعة تجري مجراها ، وتجد فيها جميع الأسعار والأجور مستواها في منافسة حرة . وكانت الثورة الوليدة آنثذ في أمريكا على القيود التي فرضتها بريطانيا على تجارة المستعمرات جزءاً من خلفية تفكير سمث . ولو استرشدت الحكومة البريطانية بحرية التجارة التي أشار بها لكان من الجائز ألا يشهد عام صدور كتابة « إعلان الاستقلال » الأمريكي .

وكان لسمث آراء في النزاع بين بريطانيا وأمريكا . فعنده أن الاحتكار الانجليزي لتجارة المستعمرات « من الذرائع الخبيثة التي يستخدمها النظام المركنتلي » (٤٥) . وقد اقترح إعطاء أمريكا استقلالها دون مزيد من النزاع مادام المستعمرون يرفضون أن تجبي منهم الضرائب لدعم نفقات الامبراطورية البريطانية « وهذا الفراق ، فراق الأصدقاء المتفاهمين ، لن تلبث المودة الطبيعية التي بين المستعمرين ووطنهم الأم . أن تنتعش بسرعة ، وقد تحملهم . على إيثارنا في الحرب كما يؤثرنا في التجارة ، وبدلاً من أن يكونوا رعايا مزعجين مشاغبين يصبحون أوفى . . . وأكرم حلفاء لنا » (٤٦) . ثم أضاف

« لقد بلغ التقدم السريع الذى أحرزه ذلك البلد هذا المبلغ الكبير من الثروة والسكان والتحسين ، بحيث قد لا ينقضى أكثر من قرن إلا قليلاً حتى يزيد ما تغله أمريكا من مال على حصيلة الضرائب البريطانية ، وعندها ينقل مقر الامبراطورية — بالطبع نفسه إلى ذلك الجزء من الامبراطورية الذى ساهم بأكبر نصيب فى الدفاع عن الكل وفى دعمه» (٤٧) .

وقد عرف سمث ثروة أمة من الأمم لا بأتمها مقدار الذهب أو الفضة الذى تمتلكه ، بل الأرض وتحسيناتها وغلاتها ، والشعب وجهده وخدماته ومهاراته وسلعه . وكانت نظريته أن أكبر الثروات المادية تكون نتيجة لأكبر الحريات الاقتصادية ، وهذا مع بعض الاستثناءات ، وحب المنفعة الشخصية أمر عام بين جميع الناس ، ولكننا لو سمحنا لهذا الدافع القوى بالعمل بأقصى حرية اقتصادية لحفز من النشاط والجرأة والمنافسة ما يثمر من الثروات أكثر من أى نظام آخر عرفه التاريخ ، (وهذه الفكرة هى فحوى قصة مندفيل الخرافية على النحل (٤٨) . فى شرح تفصيلي) وقد آمن سمث بأن قوانين السوق — خصوصاً قانون العرض والطلب — ستنسق بين حرية المنتج ومصاحبة المستهلك ؛ ذلك أنه لو حقق المنتج أرباحاً باهظة لدخل غيره الميدان نفسه ، ولأبقى التنافس المتبادل بينهما الأسعار والأرباح فى نطاق حدود معقولة . ثم ان المستهلك سيتمتع بضرب من الديمقراطية الاقتصادية . ذلك أنه بالشراء أو برفض الشراء سيقدر إلى حد كبير أى السلع تبتج ، وأى الخدمات تقدم وبأى مقدار وثمن ، بدلا من أن تملى الحكومة كل هذه الأمور .

واتباعاً للفيروقراتيين (ولكن مع الحكم بأن نواتج العمل وخدمات التجارة ثروة حقيقية كنتاج الأرض) دعا سمث لإنهاء الرسوم الإقطاعية ، والقيود النقابية ، واللوائح الاقتصادية الحكومية ، والاحتكارات الصناعية أو التجارية ، لأنها جميعاً تحد من تلك الحرية التى تتيح التحرك بمحلات الإنتاج والتوزيع ، بسماحها للفرد بأن يعمل ، وينفق ، ويوفر ، ويشترى ، ويبيع كما يشاء . وعلى الحكومة أن تطلق حرية العمل دون تدخل منها ، وأن تترك الطبيعة — أى نوازع الناس الفطرية — تعمل طليقة ، وأن تسمح

للفرد بأن يدبر أمره بنفسه ، وأن يجد عن طريق التجربة والخطأ العمل الذى يستطيع أداءه ، والمكان الذى يستطيع شغله ، فى الحياة الاقتصادية ، وأن تدعه يغرق أو يعوم .

« إننا لو اتبعنا نظام الحرية الطبيعية هذا ، لكان على الملك (أو الدولة) ثلاثة واجبات تتطلب الاهتمام بها » . . . أولها واجب حماية المجتمع من عنف وغزو جماعات مستقلة أخرى ؛ وثانيها واجب حماية أى عضو فى المجتمع ، جهداً الاستطاعة ، من ظلم وقهر كل عضو آخر فيه ، أى واجب إرساء إدارة صارمة للعدالة ؛ وثالثها واجب الإنفاق على الأشغال العامة والمؤسسات العامة التى لا يمكن إطلاقاً أن يكون من مصلحة أى فرد ، أو أى نفر قليل من الأفراد ، القيام بها أو الإنفاق عليها (٤٩) .

هنا نجد صيغة الحكومة الجفرسونية ، والهيكل العام لدولة تتيح للرأسمالية الجديدة أن تنمو وترعرع جيداً .

على أن الصيغة كانت تنطوى على ثغرة . فما رأى إذا كان منع الظلم يتضمن الالتزام بمنع استخدام الماكربن أو الأقوياء للسذج أو الضعفاء استخداماً غير إنسانى ؟ وقد أجاب سمث : أن ظلاماً كهذا لا ينبجم إلا عن الاحتكارات المقيدة للمنافسة أو التجارة ، وقد عدت مبادئه لإلغاء الاحتكارات . ويجب أن نعتمد فى تنظيم الأجور على تنافس أرباب العمل على العمال ، وتنافس العمال على الأعمال ؛ وكل المحاولات التى تبذلها الحكومات لتنظيمها تحبطها قوانين السوق إن عاجلاً أو آجلاً . ومع أن العمل (لا الأرض كما اعتقد الفريوقراطيون) هو المصدر الوحيد للثروة (٥٠) ، إلا أنه سلعة ، شأنه شأن رأس المال ، وهو خاضع لقوانين العرض والطلب . « كلما حاول القانون تنظيم أجور العمال ، كان التنظيم دائماً يخفض هذه الأجور لرفعها » (٥١) ، وذلك لأنه « كما حاولت الهيئة التشريعية تنظيم الفوارق بين السادة وعمالهم ، كان مستشاروها دائماً هم السادة » (٥٢) . وهذا الكلام كتب فى وقت كان فيه القانون الانجليزى يجيز لأرباب العمل ، ويحرم على العمال ، تنظيم أنفسهم حماية لمصالحهم الاقتصادية . وقد ندد سمث بهذا التحيز من جانب القانون ،

وتوقع حصول العمال على أجور أفضل لا بالتنظيم الحكومي بل بالتنظيم
العمالي (٥٣).

وكان رائد الرأسمالية المزعوم هذا دائم الإنحياز إلى العمال ضد أصحاب
الأعمال . فحذر من مغبة ترك التجارة ورجال الصناعة يقررون سياسة
الحكومة :

« ان مصلحة التجار . . . في أى فرع من فروع التجارة أو الصناعات
هو دائماً مختلف من بعض الوجوه بل متعارض مع مصلحة الجمهور . . .
واقترح أى قانون جديد ، أو أى تنظيم للتجارة ، يصدر عن هذه الطبقة
ينبغي دائماً الاستماع إليه بغاية الحذر . . . فهو صادر عن طبقة من الناس . . .
لهم بوجه عام مصلحة في أن يخدموا الجمهور بل أن يبغوا عليه ، وهم . . .
في مناسبات كثيرة يخدمونه ويبغوا عليه أيضاً» (٥٤).

أهذا آدم سمث أم كارل ماركس ؟ غير أن سمث دافع عن الملكية
الخاصة لأنها تحفز لا غنى عنه للجرأة والمغامرة ، وآمن بأن عدد الأعمال
المتاحة ، والأجور المدفوعة ، سيتوقف أولاً وقبل كل شيء على تجميع
رأس المال واستخدامه (٥٥) . ومع ذلك فقد دعا لرفع الأجور باعتبار هذا
الرفع مجزياً لصاحب العمل والعامل على السواء (٥٦) ، وألح على إلغاء
الرق على أساس أن « العمل الذى يؤديه الأحرار هو فى النهاية أرخص من
ذلك الذى يؤديه العبيد » (٥٧) .

وبحين ننظر إلى سمث ذاته ، فى مظهره ، وعاداته ، ونخلقه ، نعجب
كيف كتب رجل معزول على هذا النحو عن عمليات الزراعة والصناعة
والتجارة فى هذه الموضوعات المعقدة المتخصصة بمثل هذه الواقعية والبصيرة
والجرأة . لقد كان شارل دهن كنيوتن ، قليل الاعتداد بالعرف والتقاليد ،
ومع أنه كان عادة مهذباً لطيفاً ، فقد كان فى وسعه أن يقابل جلافة صموئيل
جونسن برد سريع من كلمات أربع تتشكك فى شرعية نسب « الخان الأكبر » .
وبعد نشر كتابه « ثروة الأمم » قضى عامين فى لندن حيث استمتع بالتعرف
إلى جيهون ورينولدز وبيرك « وفى ١٧٧٨ عين - رسول حرية التجارة هذا -

رئيساً للجارك المتحصلة من استكلنده . وبعدها عاش في ادنبره مع أمه ، وظل عزباً إلى النهاية . وقد ماتت أمه في ١٧٨٤ ، ولحق بها في ١٧٩٠ بالغاً السابعة والستين .

وسر إنجازه الكبير ليس في أصالة تفكيره بقدر ما هو في التمكن من بياناته والتنسيق بينها ، وفي غنى مادته التوضيحية ، وفي التطبيق المنير للنظرية على الأحوال الجارية ، وفي أسلوبه البسيط الواضح المقنع ، وفي نظراته العريضة التي رفعت الاقتصاد من مرتبة « العلم الكئيب » إلى مستوى الفلسفة . وكان كتابه علامة عصر لأنه محص وفسر — ولم ينتج بالطبع — الحقائق والقوى التي أخذت تحول الاقطاعية والتجارية إلى الرأسمالية والمشروعات الحرة . وحين خفضت الثانية الضريبة المفروضة على الشاي من ١١٩٪ إلى ١٢ ¼٪ وحاول عموماً أن يحقق للتجارة حرية أكبر ، اعترف بدينه لكتاب « ثروة الأمم » . ونخبرنا اللورد روزبري في حديثه عن حفلة عشاء حضرها بت ، كيف أن الحاضرين على بكرة أبيهم قاموا وقولاً حين دخل سمث وقال بت « سنظل واقفين حتى تجاس ، لأننا جميعاً تلامذتك » (٥٨) . وقد تنبأ السر جيمس مري — بلتني بأن كتاب سمث « سيقنع الجيل الحاضر ويحكم الجيل القادم » (٥٩) .

٥ — روبرت بيرنز

يقول أشعر شعراء اسكتلنده « إن دمي القديم الحسيس قد اندس إلى من أوغاد عاشوا منذ الطوفان » (٦١) ولكننا إن نتقصى نسبه لأبعد من ولیم بيرنز ، الذي لم يكن وغداً بل مزارعاً مستأجراً سريع الغضب شديد الاجتهاد . وفي ١٧٥٧ تزوج آجنس براون ، التي أهده روبرت في ١٧٥٩ . وبعد ست سنوات استأجر ولیم مزرعة مساحتها سبعون فداناً في ماوت أوليفانت ، وهناك عاشت الأسرة المتكاثرة عيشة التقتر في بيت منعزل . وتلقى روبرت تعليمه في البيت واختلاف إلى مدرسة الأبرشيه ، ولكنه اشتغل في المزرعة منذ بلوغه الثالثة عشرة . فلما ناهز الرابعة عشرة « أدخاني صبية جميلة ، لعليفة مرحة ، في عاطفة بحارة لذيذة أراها برغم خيبة الأهل المرة ، والحكمة

الثقيلة ، والفلسفة الغارقة في الدرس ، أروع المباحج البشرية» (٦١) . وفي الخامسة عشرة التقى بـ « ملاك » ثان وسهر الليالي المحمومة مفكراً فيها . . وقد استمخض أخوه إلى الذهن أن « تعلق روبرت بالنساء اشتد كثيراً ، وكان دائماً ضحية حسناء تسترقه » (٦٢) .

وفي ١٧٧٧ وفي نوبة من الشجاعة المستهتره ، استأجر ولیم بيرنز مزرعة لوخلى ، ومساحتها ١٣٠ فداناً ، في تاربولتن ، التي تعاقد على أن يدفع فيها ١٣٠ جنيتها في العام . وأصبح روبرت الذي بلغ الآن الثامنة عشرة ، والذي كان أكبر أبناء سبعة ، العامل الأول في المزرعة لأن ولیم شاخ قبل الأوان بعد أن حطمه الكد الذي لا غناء فيه . وقد باعد بين الوالد والولد غلو الأول في البيورتانية ، وانفتاح الآخر على ناموس أرحب . وتردد روبرت على مدرسة للرقص رغم منع أبيه له . قال الشاعر ذاكراً تلك الحقبة « ومن مثل التمرد ذلك شعر بضرب من الكراهية لي ، وكان هذا في اعتقادي من أسباب ذلك الفسق الذي اتسمت به سنواتي المستقبلية » (٦٣) : وحين بلغ روبرت الرابعة والعشرين انضم إلى محفل ماسوني . وفي ١٧٨٣ صودرت المزرعة للتحالف في دفع الإيجار . وكتل روبرت وأخوه جلبرت مواردتهما الضئيلة ليستأجرا مزرعة مساحتها ١١٨ فداناً نظير تسعين جنيتها في العام ، وراحا يكادحان فوقها أربع سنين ولا يصيبان منها غير سبعة جنيات لكل منهما في العام لنفقاتهما الشخصية ؛ وهناك عالاً أبويهما وشقيقتاهما وأشقاهما . ثم مات الأب بالسل في ١٧٨٤ .

وقرأ روبرت في ليالي الشتاء الطويلة الكثير من الكتب ، ومنها تواريخ روبرتسن ، وفلسفة هيوم ، والفردوس المفقود . « اعطني روحاً كروح بطلي المفضل ، شيطان ملتن » (٦٤) . فلما غاظته رقابة الكنيسة الاسكتلندية على الأخلاق لم يعز عليه أن ينبذ لاهوتها ويكتفي بإيمان غامض بالله والخلود . وقد سخر من أولئك « السنين ، الذين يؤمنون بيوحنا فوكس ، ونامره الذن بأن هؤلاء القساوسة كانوا فيما بين أيام الآحاد يأثمون خفية كما يآثم (٦٥) . وقد وصف في قصيدة « المهرجان المقدس » (التي تدور حول اجتماع للإنعاش الديني) سلسلة من الوعاظ يذمون الخطيئة ويهددون

بالجحيم ، بينما تنتظر المومسات في ثقة خارج الاجتماع زبائن من جمهور
المصاين .

واشتد بغض بيرنز لرجال الدين حين أوفد أحدهم مندوباً عنه ليوبخه
ويغرمه عقاباً على معاشرته لبتي باتن دون أن يكون زوجاً لها . ثم استحال
البغض غضباً حين وبخ مجلس كنيسة موكاين (١٧٨٥) مالك أرضه
اللطيف ، جافن هاماتن ، على تخلفه المتكرر عن صلوات الكنيسة . وكتب
الشاعر الآن أقذع أهاجيه « صلاة القديس ولي » التي سخرت من فضيلة
وليم فشر المراثية ، وكان من شيوخ كنيسة موكاين . فصوره بيرنز يخاطب
الله قائلاً :

إني أبارك وأحمد قدرتك التي لا ضريب لها ،
إذ تركت الألوف في الليل ،
لتأتى إلى هنا وأنا أمام ناظريك
طالباً عطاياك وأفضالك ناراً ونوراً ساطعاً
لهذا البيت كله . . .

رباه إنك عليم بأننى كنت البارحة مع مج . . .
لذلك أطلب عفوك مخلصاً . . .

أواه ! لا تكن هذه الفعلة لطخة دائمة
تلوث شرفى ،

ولن أرفع ساقاً خاطئة
فوقها مرة أخرى .

ثم لا بد أن أعترف

بأننى كنت مع ابنة ليزى ثلاث مرات ،
ولكنى كنت ياربى مخموراً في يوم الجمعة ذاك
حين دنوت منها ،

ولإفما كان عبءك
لئبجرؤ على اغوائها قط . . .
ثم أذكر رباه أن جافن هاملتن بهجر الكنيسة ،
ويسكر ويحلف ويلعب الورق
ومع ذلك فقد كثرت حيله المحببة
للناس كبيرهم وصغيرهم ،
وهو يسرق قلوب الناس
من القس الذي اصطفاه الله . . .
رب أدنه في يوم انتقامك ،
رب ابتل من استخدموه
ولا تغض عنهم في مراحمك
ولا تستمتع إلى صلاتهم !
ولكن لأجل شعبك أهلكهم
ولا تبق منهم أحداً .
ولكن إذكرني يارب وكل ما أملك
بمراحم أرضية وسماوية ،
حتى أضىء بالنعمة والثراء
ولا يزني في ذلك أحد ،
وليكن لك كل المجد
آمين ، آمين !

ولم يجرؤ بيرنز على نشر هذه القصيدة فلم تصل إلى المطبعة إلا بعد
موته بثلاث سنين .

وكان في غضون هذا يتيح للكنيسة الكثير من المبررات لتقريعه ، فقد

لقب نفسه « زانياً محترفاً » (٦٦) . وكانت كل عذراء جديدة تثير عاطفته :
« كلو الفاتنة تطفو فوق الموجة اللؤلؤية » ، وجين آرمر ، ومارى كامبل
الهايلاندية ، وبجى تشالمرز ، و« كلارندا » ، وجنى كروكشانك ، وجنى
الدالريه « مقبلة خلال الجاودار » و« الصغيرة الحلوه » دبورا ديفز ، وآجنس
فلمنج ، وجنى جافرى ، وبجى كندى الساكنة « نهيير دون الجميل » ،
وجسى ليوارز ، وجين لوريمر (كلوريس) ، ومارى موريسن ، وأنا
بارك ، وأناويلي ستيوارت ، وبجى طوهسن - وغيرهن (٦٧) . ولم يعوضه
عن مشاق الحياة وخطوبها غير عيونهن المشرقة الضاحكة ، وأيديهن الناعمة
وصدورهن الناصعة مثل « الثلج المتساقط » . وقد اعتار عن تقلبه الجنسى
بأن كل الأشياء فى الطبيعة تتغير ، فلم يكون الإنسان استثناء للقاعدة ؟ (٦٨)
ولكنه حذر النساء من الثقة بوعود الرجل (٦٩) . ونحن نعلم أنه أجب خمسة
أطفال من زواجه ، وتسعة بغير زواج . قال « إن لى عبقرية فى الأبوة »
وخيل إليه أنه لا شفاء له إلا أن يخصى (٧٠) . أما عن توبيخات القساوسة
وقوانين اسكتلنده :

فلتضافر الكنيسة والدولة لتنهيانى

عن فعل ما لا يذبغى أن أفعل .

فلتذهب الكنيسة والدولة إلى الجحيم

أما أنا فذاهب إلى حبيبتى آنا (٧١) .

فلما ولدت له بى باتن طفلاً (٢٢ مايو ١٧٨٥) عرض أن يتزوجها ،
ولكن أبويها رفضا العرض . فانصرف عنها إلى جين آرمر وأعطاهما تعهداً
كتابياً بالزواج ، ولم تلبث أن حملت . وفى ٢٥ يونيو مثل أمام مجلس الكنيسة
وأعترف بمسئوليته . وقال إنه كان يعد نفسه متزوجاً من جين ، وأنه موف
بعهده ؛ ولكن أباهما رفض أن يزوجها لفلاح فى السابعة عشرة مثقل بطفل
غير شرعى . وفى ٩ يوليو تاتى بيرنز من مقعده فى الكنيسة التوبيخ العلنى
فى اتضاع . وفى ٣ أغسطس ولدت جين توأمين . وفى ٦ أغسطس قبل
هو وجين التوبيخ أمام شعب الكنيسة و « أحلاً من الفضيحة » وأقسم الأب
ليستصدرن أمراً بالقبض على بيرنز ؛ فاختم الشاعر وخطط أن يركب البحر

إلى جميعها ، ولم ينفذ أمر القبض ، وعاد روبرت إلى مزرعته . في ذلك الصيف ذاته وعد بأن يتزوج ماري كامبل وأن يصطحبها إلى أمريكا ؛ ولكنها ماتت قبل أن يستطيعا تنفيذ الخطة ؛ وقد أحيا بيرنز ذكراها في قصيدته « ماري الهايلاندية » و « إلى ماري التي في السماء » (٧٢) .

في ذلك العام الحافل بالإنتاج (١٧٨٦) نشر في كلمارنوك أول دواوين شعره بالإكتتاب . وحذف من الديوان القصائد التي قد تسيء إلى الكنيسة أو أخلاقيات الشعب ، وأبهج قراءه بلهجته الأسكتلندية وأوصافه لمشاهد الطبيعة المألوفة ؛ وسرّ الفلاحين برفع دقائق حياتهم إلى مستوى الشعر المفهوم . ولعل شاعراً من الشعراء لم يعبر قط كما عبر عن هذا التعاطف مع الحيوانات التي تشارك في أعباء يوم الفلاح ، أو « الحروف الأبله » الحائر وسط الثلج المنهمر ، أو الفأر الذي أزاحه عن جحره المحراث القادم .

واكنك يا جرذى لست الوحيد

الذي يثبت أن بعد النظر قد يكون باطلا ،

فكثيراً ما تخطيء أشد خطط الفيران والناس احكاماً .

ويكاد يبالغ مبالغ هذه الأبيات في جريها على الألسن مجرى الأمثال تلك التي تختم قصيدته المسماة « إلى قملة عند رؤيتها أخرى على قبة سيدة في الكنيسة » :

ألا ليت قوة من القوى تهبنا أن

نرى أنفسنا كما يرانا الير (٧٣) .

ولكى يضمن بيرنز الترحيب بديوانه الصغير توجه بقصيدة سماها « ليلة سبت الفلاح » : قصور الفلاح يستريح بعد أسبوع من الكد الشديد ؛ وزوجته وأطفاله يلتفون به كل محكى قصة من قصص نهاره ؛ وكبرى بناته تقدم لأبيها الحطيب الحجول في تردد واحجام ؛ ثم المشاركة السعيدة في الطعام البسيط ؛ والأب يقرأ الكتاب المقدس على أسرته ؛ ثم الصلاة الجماعية ، وإلى هذه الصورة السارة أضاف بيرنز مناجاة وطنية لـ « اسكتلنده » ، أرضى ووطنى الحبيب ا » وبيع كل المطبوع من النسخ إلا ثلاثاً وعددها ٦١٢ في

أربعة أسابيع ، وبلغ صافي حصيلة بيرنز منها عشرين جنيها .
وكان قد فكر في أن يستخدم هذه الحصيلة في دفع أجر الرحلة إلى
أمريكا ولكنه عدل وخصصها لفترة يقيمها في أدنبره . فلما بلغها على جواد
استعاره في نوفمبر ١٧٨٦ اقتسم حجرة وسريرا مع فتى ريفي آخر . وكان
يشغل الطابق الذي يعلوهما بعض المومسات الصاخبات . وفتح له الأبواب
نقاد أدنبره الأدبيون ، فكان معبود المجتمع المهذب طوال موسم . ووصفه
السر ولتر سكوت بهذه العبارات :

« كنت صبيا في الخامسة عشرة عام ١٧٨٦ - ٨٧ حين وفد بيرنز أول
مرة على أدنبره . . . ورأيتة يوما في بيت الأستاذ فيرجسون المحترم ، حيث
التقي نفر من السادة ذوى الشهرة الأدبية . . وكان شخصه قويا عفيا ، فيه
جهامة ريفية بغير جلافة ، عليه سماء البساطة والصرامة الوقورين . وجهه ضخم
والعين واسعة سوداء اللون ، تتألق . . . إذا تكلم . . . وكان في مجلسه من
هؤلاء الرجال ، وهم صفوة المثقفين في جيلهم ووطنهم ، يعبر عن رأيه
في قوة بالغة ولكن دون أدنى صلف » (٧٥) .

وقد وجد التشجيع على إصدار طبعة مزيدة من قصائده . ولكنى يضيف
إلى ديوانه الجديد مزيدا من المادة اعترم أن يضمه قصيدة من مطولاته
اسمها «الشحاذون المرحون» لم يجرؤ من قبل على طبعتها في ديوان كلمارنوك
وقد وصفت القصيدة تجمعا للمتشردين ؛ والصعاليك ، والمجرمين ،
والشعراء ، والعابثين ، والبغايا ، والعجزة ، والجنود المنبوذين ، في خمارة
نانسى جبسن بمدينة موكاين . ثم وضع بيرنز في أفواههم أصرح السير
الذاتية وأمعنها في الخطيئة ، واختتم هذا الحليط بكورس مخمور :

« ما أتفه الذين يحميهم القانون !

إن الحرية مآدبة فاخرة !

وقصور الملوك لم تبني إلا للجبناء .

وما شيدت الكنائس إلا مسرة لرعاتها (٧٦) »

وهالت الدارس والواعظ هيو بليز فكرة نشر هذا الازدراء للفضائل

فأذعن بيرنز ، وسى بعد ذلك به نظم هذه القصيدة ، (٧٧) وقد احتفظ بها أحد أصدقائه ثم رأت النور في ١٧٩٩ .

وباع المشرف الأدبرى على النشر نحو ثلاثة آلاف نسخة ، نخلص منها لبيرنز ٤٥٠ جنيتها . فاشترى فرسا ركبها في رحلة إلى إقليم المرتفعات (٥ مايو ١٧٨٧) ثم عبر نهر تويد ليرى طرفاً من انجائره . وفي ٩ يونيو زار أقاربه في موسجيل ، وألم بجن آرمر ، فرجبت بمقدمه ، وحبلت مرة أخرى . فلما عاد إلى أدنبره التي بمسز أجنيس مليهيوز . وكانت قد تزوجت جراحاً من جلاسجو وهي في السابعة عشرة ، ثم تركته في الحادية والعشرين (١٧٨١) مصطحبة أطفالها واستقرت في العاصمة في عيشة كريمة مدبرة . فدعت بيرنز إلى بيتها ، ووقع في غرامها دون إبطاء ، ويبدو أنها لم تسلمه نفسها ، لأنه ظل مقبياً على حبها ، وتبادلا الرسائل وقصائد الشعر ؛ وكان توقيعها عليها باسم « سيافاندر » وتوقيعها « كلاريندا » . وفي ١٧٩١ قررت أن ترحل وتلتحق بزوجها في جميعكا . وبعث إليها بيرنز أبياتا رقيقة على سبيل الوداع .

قبلة حارة واحدة ثم نفترق ،
وداع واحد ، ثم لا لقاء بعده !
لو لم نحب هذا الحب الرقيق ،
ولو لم نحب هذا الحب الأعمى ،
ولو لم نلتق ولو لم نفترق ،
لما تحطم قلبانا قط (٧٨) .

ولكنها وجدت زوجها يعيش مع ساقية زنجية ، فعادت إلى أدنبره . أما وقد عجز بيرنز عن إشباع عشقه لها ، فقد التمس الصحبة والقصف في ناد محلي يسمى « المدافعين عن كروكلان » - رجال تعاهدوا على الدفاع عن مدينتهم . هناك كان الخمر والنساء هما الآلهة الحارسة ، والفسق السيد المتسلط . وقد جمع بيرنز لأجابههم الأغاني الأسكتلندية القديمة وأضاف إليها من عنده ؛ ووجد بعضها طريقه إلى النشر سرا وغفلا عن اسم الشاعر عام ١٨٠٠ بعنوان « عرائس شعر كلدونيا المرحات » . وقد قضى على ترحيب

مجتمع أدنبره الراقى ببيرنز سريعا انهماؤه إلى هذا النادي ، وازدراؤه السافر للفوارق الطبقيّة (٧٩) ، وإعرايه الصريح عن الآراء المتطرفة في الدين والسياسة .

ثم حاول الحصول على وظيفة جاب للضرائب . فلما صد عنها غير مرة ، راض نفسه على مغامرة جديدة في الفلاحة . ففي فبراير سنة ١٧٨٨ استأجر مزرعة إيلسلاند ، الواقعة على خمسة أميال من دمفريز ، واثني عشر من كريجنيتوك مدينة كارليل . وأقرض مالك المزرعة الشاعر ٣٠٠ جنيه لينى بثنا في المزرعة ويسيج الحقل بعد أن وصف التربة في غير موارد بأنها « في أسوأ حالات الإنهاك » (٨٠) . واتفق على أن يدفع له بيرنز خمسين جنيها كل عام على امتداد ثلاث سنين ، ثم سبعين . وولدت جين آرمر أثناء ذلك توأمين (٣ مارس سنة ١٧٨٨) لم يلبثا أن ماتا . وتزوجها بيرنز قبل ٢٨ ابريل بقليل ، وأقبلت بطفنها الوحيد الذى بقى لها من أطفالها الأربعة الذين ولدتهم له لشخدمه زوجة ومديرة لبيته في اليلسلاند . وأنجبت له طفلا آخر سماه بيرنز « رائعى في ذلك النوع من الصناعة ، لآنى أرجو أن يكون « فام أو شانتر » إنجازى القياسى في الميدان السياسى » (٨١) وفى سنة ١٧٩٠ توثقت علاقته بآنا بارك ، الساقية في حانة دمفريز ، وفى مارس سنة ١٧٩١ ولدت له طفلا أخذته جين وربته مع أطفالها ، (٨٢)

وكانت الحياة شاقة في إيلسلاند ، ولكنه واصل قرض الشعر الرائع . وهناك أضاف مقطعين شهيرين لأغنية سكارى قديمة سماها « الأيام الخوالى » وظل بيرنز يكدح حتى انهارت قواه كما انهارت قوى أبيه من قبل . واغتبط حين عين (١٤ يوليو سنة ١٧٨٨) مفتش إنتاج ، يجوب البلاد ليعاير اليراميل ، ويفتش على أصحاب المطاعم ، والشمامخ ، ويقدم تقاريره لمجلس إنتاج أدنبره . ويبدو أنه أرضى المجلس رغم كثرة شجاره مع جون بارليكورن . وفى نوفمبر سنة ١٧٩١ باع مزرعته بربح ، وانتقل مع جين والأطفال الثلاثة إلى بيت في دمفريز .

وقد آذى شعور أهل المدينة الوقورين بتردده على الحانات ، وعودته مرارا إلى جين الصابرة وهو ثمل بالخمر . (٨٣) على أنه ظل شاعرا فحلا ،

ففي تلك السنوات الخمس نظم هذه القصائد: يا ضفاف نهر دون الجميل ومروجه «
و « إلى الأسكتلنديين الذين أريقت دماؤهم مع ولاس » و « حبيبتى أشبه
بوردة حمراء حمراء » . وقد تبادل الرسائل مع السيدة فرانسيس دنلوب ،
التي كان يزورها أحيانا وكان في عروقتها أثارة من دم ولاس ، لأنه افتقد
في زوجته الرفيق الفكري . وقد جاهدت هذه السيدة لترويض أخلاق بيرنز
ولغته ، ولم يكن ذلك دائما لفائدة شعره . وكان أكثر تقديرا لأوراق
البنكنوت من فئة الجنيهات الخمسة ، التي كانت توافيه بها بين الحين
والحين . (٨٤)

وقد عرض وظيفته في تفتيش الإنتاج للخطر بأرائه التطرفة . فأشار على
جورج الثالث في خمسة عشر مقطعا رائعا أن يتخلص من وزرائه الفاسدين ،
ونصبح أمير ويلز (ولى العهد) بأن يكف عن فجوره ، وعن إسرافه في
لعب القمار مع تشارلي (فوكس) « إن شاء أن يرث العرش (٨٥) . وفي خطاب
أرسله لصحيفة أدنبره « كورانت » صفق لإعلان الاستقلال الأمريكي .
وفي سنة ١٧٨٩ كان « نصيرا متحمسا : للثورة الفرنسية . وفي سنة ١٧٩٥
فجر لغنا على فوارق المراتب .

أبسبب الفقر الشريف

ينكس الغدير رأسه وينحزي ؟

إنا نمر بالعبد الجبان فلا نعبأ به ،

وإنا نجوؤ على أن نكون فقراء رغم هذا كله ! .

ورغم أن كونا وكدحنا مجهولان مغموران .

أن المراتب ليست سوى خاتم الجنيه ،

أما الإنسان فهو الذنب رغم هذا كله .

* * *

إن الرجل الشريف ، وإن اشتد فقره

أمير القوم رغم هذا كله .

* * *

أترى ذلك الرجل الذى يلقبونه لوردا
والذى يهتال فى مشيته ويحقد فى الناس ،
إنه ليس إلا غيبيا أحرق رغم هذا
وإن انحنى المئات لأمره ونهيه

* * *

إذن لنصل لياتى ذلك اليوم ،
وهو آت لا ريب فيه رغم هذا كله ،
يوم يحقق العقل والكفاءة الانتصار فى كل الأرض قاطبة
إنه آت رغم هذا كله ،
يوم يقف الرجل أمام الرجل
إخوانا فى بقاع الأرض .

وتوالى الشكاوى على مجلس الانتاح تقول أن رجلا متطرفا كهذا
ليس بالرجل الذى يصلح للتفتيش على الشاعين ومعاوية براميل الخمر ،
ولكن أعضاء المجلس صفحوا عنه لحبه لاسكتلنده واشادته بها . وكانت
الجنهات التسعون التى أتته بها وظيفته لا تكاد تتيح له الحيز والكأس ،
وواصل تشرده الجنسى ، وفى ١٧٩٣ ولد له طفل من السيدة ماريا ريدل
التي اعترفت بـ « قوة جاذبتي التي لا تقاوم » وأضعف إدمانه الخمر عقله وكبرياءه
آخر الأمر . فراح يرسل إلى أصدقائه خطابات الاستجداء على نحو ما كان يفعل
موتسارت فى هذا العقد ذاته .^(٨٦) ورددت للشائعات أنه مصاب بالزهرى ،
وأنه عثر عليه ذات صباح قارس البرد فى يناير ١٧٩٦ ملقى وسط الثلوج وهو
سكران .^(٨٧) وقد انتقدت هذه الشائعات باعتبارها هرطقة لاسند لها ،
ويشخص الأطباء الاسكتلنديون مرض بيرنز الأخير بأنه حمى روماتزمية
أذت قلبه .^(٨٨) وقبل أن يموت بثلاثة أيام كتب إلى حميه يقول « أرجوك
بالله أن ترسل السيدة آرمرالينا فوراً ، فزوجتى تتوقع كل ساعة أن تلزم
الفراش . رباه ! أى موقف يمكن أن تقفه المرأة المسكينة وهى بغير
صديق ! .^(٩٨) ثم لزم فراشه ومات فى ٢١ يوليو ١٧٩٦ . وبينما كانوا

يوارونه التراب ولدت زوجته إبتنا . وجمع أصدقاؤه بعض المال للعناية بها ، وقد عمرت إلى عام ١٨٣٤ لأنها كانت صلبة العود قوية القلب .

٦ - جيمس بوزويل (*)

١ - الشبل

كان يجرى في عروقه الدم الملكي . فأبوه الكسند بوزويل ، سيد ضيعة أونخلك في إيرشيز والقاضي بمحكمة اسكتلنده المدنية العليا ، سليل لأيرل أران ، وهو جد بعيد لجيمس الثاني ملك اسكتلنده . أما أمه فتحدرت من إيرل افوكس الثالث ، وكان جد اللورد دارنلي ، الذي كان أبا جيمس السادس . وقد ولد جيمس بوزويل بأدنبره في ٢٩ أكتوبر ١٧٤٠ . وكان بوصفه أكبر أبناء ثلاثة الوريث لضيعة أونخلك المتواضعة (وكان ينطقها آفليك) ، ولكن بما أن أباه عمر حتى ١٧٨٢ ، فقد كان عليه أن يظل غير قانع بما يجريه عليه اللورد من دخل . وأصيب أخوه جون في ١٧٦٢ بأولى نوبات الجنون العديدة وكان بوزويل نفسه فريسة لنوبات من الوهم التمس الشفاء منها في غيبوبة الشراب ودفء أجساد النساء . وقد علمته أمة العقيدة

(*) كان اكتشاف يوميات بوزويل من أشد الأحداث إثارة في تاريخ عصرنا الأدبي . وكان قد أوصى بأوراقه لورثته الذين رأوا فيها من الفضائح . لا يسبيغ نشرها . وقد عثر على رزمه منها تحتوى « يومية لندن » في فركيرن هاوس ، قرب أبردين ، عام ١٩٣٠ . واستكشف كنز أكبر من صناديق وخزانات قلعة مالاهايد قرب ديلن ، في ١٩٢٥ - ٤٠ . واشترى الكولونل رلف ايشام معظم الأوراق ، ثم اشترتها منه جامعة ييل . وقد حققها الأستاذ فردريك أ . بوتل لشركة ماكجرو- هل للنشر ، وهي صاحبة الحق الوحيدة في نشرها . . ونحن شاكرون للمحقق وللناشر الاذن لنا بنقل بعض الفقرات من اليومية . وقد ظهر كتاب الاستاذ بوتل « جيمس بوزويل : السنوات الأولى » بعد كتابة هذا الفصل . .

الكلفينة المشيخية التي كانت تنبض بدفء تفردت به . كتب في تاريخ لاحق يقول « لن أنسى ما حييت ساعات الحوف التعسة التي تحملتها في صباى نتيجة الأفكار الضيقة عن الدين ، بينما كان عقلى يمزقه رعب جهنمى »^(٩٠) . وكان طوال حياته كلها يتذبذب بين الإيمان والشك ، وبين التقوى والإنغماس في لذة الجنس . ولم يحقق قط أكثر من تكامل وقى أو اطمئنان عابر .

وبعد أن تلقى الدروس في البيت فترة أرسل إلى جامعة إدنبره ، ثم إلى جلاسجو ، حيث اختلف إلى محاضرات آدم سميث ودرس القانون . وفي جلاسجو التقى بالمثلين والممثلات وكان بعضهم كاثوليكاً . وبدأ له أن مذهبهم أكثر من الكلفنية توافقاً مع الحياة المرححة ، وأعجبته بوجه خاص عقيدة المطهر التي تسمح للمخاطيء بالخلاص بعد بضع دهور من الحريق . فركب جيمس فجأة وانطلق إلى لندن (مارس ١٧٦٠) وانضم إلى كنيسة روما .

وأرسل الأب المفزع إلى إيرل أجلنتن يناشده أن يرعى جيمس ، وكان الرجل جاراً من جيرانه في إيرشير يسكن لندن . وقال الايرل للشاب أنه ظل كاثوليكياً فلن يستطيع أبداً أن يمارس المحاماة ، أو يدخل البرلمان ، أو يرث أو يخلع . فنقل جيمس إلى اسكتلنده وكنيستها ، وعاش تحت سقف أبيه وبصره ، ولكن لما كان القاضي مشغولاً ، فقد أفلح ابنه في أن يلتقط عدوى مرض سرى «^(٩١) وكانت أولى إصاباته الكثيرة بالمرض السرى . وخاف الأب أن يبدد الفتى الطائش ميراث أو خنلك على اللهـو والعريضة حين يرثها ، فأقنعه لقاء راتب سنوى قدره مائة جنيه بأن يوقع وثيقة بكل بمقتضاها إدارة التركة مستقبلاً لأوصياء يعينهم بوزويل الأب .

وفي ٢٩ أكتوبر ١٧٦١ بلغ جيمس سن الرشد ، فضوعف راتبه السنوى . وفي مارس التالى حبلت منه جى دويج ، وفي يوليو جاز امتحان المحاماه . وفي أول نوفمبر ١٧٦٢ انطلق إلى لندن بعد أن ترك لبعجى عشرة جنهات (وقد ولدت طفلها بعد بضعة أيام ، ولكن بوزويل لم يره قط) .

وإتخذ له في لندن غرفة مريحة في داوننج ستريت . ولم يأت الخامس والعشرون من نوفمبر حتى شعر أنه « تعس حقاً لافتقاره إلى النساء » (٩٢) ، ولكنه تذكر مرضه المعدي ، ثم إن « أتعاب الجراحين في هذه المدينة باهظة » (٩٣) . وعلى ذلك تجلد حياة العفة « حتى أعر على فتاة مأمونة ، أو تحبني امرأة من نساء المجتمع العصري » (٩٤) . وكان انطباعه عن لندن أنها تقدم كل لون من ألوان الغواني ، « من السيدة الفخمة التي تتقاضى خمسين جنيهًا في الليلة إلى الحورية اللطيفة التي تسلم شخصها الجذاب لشرفك لقاء كوب من النبيذ وشلن واحد » (٩٥) . واتصل بـ « ممثلة مليحة » تدعى لويزة ، بداله أن تمنعها الطويل يشهد بنظافتها الصحية . وأخيراً أغراها ، وحقق نشوة مخمسة ، « وقد صرحت بأنني أعجوبة » (٩٦) . وبعد ثمانية أيام اكتشف أنه أصيب بالسيلان . وفي ٢٧ فبراير شعر أنه شفى ، وفي ٢٥ مارس التفت مومساً من عرض الطريق و « باشرها وهو مدرع » (بكيس واق) . وفي ٢٧ مارس « سمعت صلاة في كنيسة سانت ونستن » وفي ٣١ مارس « تمشيت في هايدبارك وأخذت أول بغى لقيتها » (٩٧) وتسجل « يومية لندن » التي خلفها بوزويل أمثال هذه المغامرات خلال الشهور الأربعة التالية - في جسر وستمنستر ، وفي حانة « هد تافرن » التي كان يرتادها شكسبير ، وفي هايد بارك ، وفي حانة على الستراوند ، وفي محاكم التمبل ، وفي بيت الفتاة .

وهذا بالطبع ليس إلا جانباً واحداً في صورة رجل ، وحشد هذه الأحداث المتفرقة في فقرة واحدة يعطى انطباعاً خاطئاً عن حياة بوزويل وخلقه . أما الجانب الآخر فهو « حبه الحار لعظماء الرجال » (٩٨) . وأول صيد له في هذا كان جاريلك ، الذي استطاب مدائح بوزويل وأحبه لتوه ، ولكن جيمس كان يتطلع إلى الدرر الشائخة . وكان قد سمع في إدنبره توماس شريدان يصف لوزعية صموئيل جونسن وحديثه اللدسم . فقال لنفسه إن لقاء هذا القمة في حياة لندن الأدبية سيكون « ضرباً من الحمد » .

وأعانتته الصدفة على ما ينشد . ففي ١٦ مايو ١٧٦٣ كان بوزويل يشرب

الشاى فى مكتبة الكتبي توماس ديفز بشارع رسل ، واذا « رجل ذو مظهر رهيب جداً » يدخل المكتبة . وتبين بوزويل شخصه بن لوحة كان قد رسمها رينولدز لجونسن . فرجا ديفز ألا يروح بأن وطنه اسكتلنده ، ولكن ديفز باح بالسر « فى خبث » للفور . ولم يفت جونسن أن يلاحظ أن اسكتلنده بلد طيب يقدم منه الإنسان . وجفل بوزويل . ثم شككا جونسن من أن جارياك ضمن عليه بتذكرة مجانية للأنسة ولمز لتحضير تمثيلية معروضة ، وتجاسر بوزويل على أن يقول « سيدى ، لست أستطيع الاعتقاد بأن مستر جارياك يضمن عليك بمثل هذا الشىء التافه . » وهنا انقض جونسن عليه بقوله « سيدى ، لقد عرفت ديفد جارياك زمناً أطول مما عرفته ، ولست أرى لك حقاً فى أن تكلمنى فى هذا الأمر » . ولم يكن فى هذا الجواب ما يبشر بصحبة مديدة . و « صعق » بوزويل و « أحس بالخزى » ، ولكن بعد مزيد من الحديث « اقتنعت بانه وإن كان فى مساكه خشونة ، إلا أنه ليس فى طبعه لؤم » (٩٩) .

وبعد ثمانية أيام ، وبتشجيع من ديفز وبدعم من جراته الصديقة ، قدم بوزويل نفسه لجونسن فى شقته بالأنر تيميل ، فاستقبله فى تالطف أن لم يكن فى ظرف كثير . وفى ٢٥ يونيو تعشى اللب والشيل معاً بحانة الميتر فى فليت ستريت « كنت فخوراً جداً بفكرة وجودى معه » وفى ٢٢ يوليو « خصصت لنا - أنا ومستر جونسن - غرفة فى مشرب تيركس هد » ثم كتب بوزويل فى يوميته « بعد هذا سأكتفى بتسجيل الذكريات الخاصة بمستر جونسن ، والجديرة بالتسجيل ، كلما طفت فى ذاكرتى » (١٠٠) وهكذا بدأت هذه السيرة الرائعة .

ولما رحل بوزويل إلى هولنده (٦ أغسطس ١٧٦٣) ليدرس القانون استجابة لألحاح أبيه ، كان لإنسجام الأستاذ وتلميذه عظيماً حتى لقد رافق جونسن ذو الثلاثة والخمسين بوزويل ذا الإثنين والعشرين إلى هاروبتش ليودعه عند رحيله .

ب - بوزويل خارج بريطانيا

واستقر به المقام في أترخت ، حيث درس القانون ، وتعلم الهولندية والفرنسية ، وقرأ كل كتاب فولتير « في الأعراف » (كما يقول) . وقد عانى أول الأمر من نوبة اكتئاب قاسية ، ووبخ نفسه على كونه زير نساء حقيراً ، وفكر في الإنتحار . وألقى اللوم في فجوره الأخير على فقدته إيمانه الديني . « كنت مرة كافرأ » ، وساكت مسلك الكافرين ؛ أما الآن فأنا جنتلمان مسيحي » (١١١) . ووضع لنفسه « خطة محكمة » لأصلاح ذاته : فهو عازم على إعداد نفسه للقيام بواجبات اللورد الإسكتلندي « وعلى أن يكون وفياً لكنيسة انجلترا » ، وأن يلتزم بالقانون الأخلاقي المسيحي « محذراً من أن تتحدث عن نفسك » بل « إحترم نفسك . . . وستكون على العموم شخصية ممتازة » (١١٢) .

ثم استعاد إهتمامه بالحياة حين وجد قبولاً في بيوت سراة الهولنديين . فكان في زيه الآن « القرمز والذهب ، . . . والجوارب الحريرية البيضاء ، والخفان الجميلان . . . ومنديل برشالوني ، وعلبة أنيقة لخلعة الأسنان » (١١٣) . وعلق قلبه بإيزابيللا فان تويل ، التي كان المعجبون بها يلقبونها « حسناء زويان » و« زليدة » أيضاً ، وقد نوهنا من قبل عنها واحدة من نساء كثيرات لامعات في هولنده ذلك الجيل . ولكنها عرفت عن الزواج ، وأقنع بوزويل نفسه بأنه قد رفضها . ثم جرب محظه مع مدام جيلفنك ، الأرملة الحسنة ، ولكنه الفأها « لذيذة حصناء » (١١٤) . وأخيراً « صممت على القيام برحلة إلى أمستردام واصطياد فتاه » . فلما أن بلغها « ذهبت إلى ماخور . . . وأذى شعوري أن أجدني في مهاوى الفجور الوضيع » وفي الغد « ذهبت إلى كنيسة اوستمعت إلى عظة حسنة . . . ثم تجولت مخترقاً المواخير الحقيمة في أزقة قدرة » (١١٥) . واستعاد « كرامة الطبيعة الإنسانية » حين تسلم من صديق خطاب تقديم إلى فولتير .

وكان قد وفي بوعد له لأبيه بأنه سيدرس بجد في أوترخت ؛ لذلك تلقى منه الإذن والمال للرحلة الكبرى المألوفة التي يتوج بها الجنتلمان الانجليزي

الشباب تعليمه . فودع زليده ، وبالطبع كان في عينها دموع الحب ، وفي ١٨ يونيو ١٧٦٤ عبر الحدود إلى ألمانيا . وظل قرابة عامين بعدها يرسلها ويبادلها الثناء والنقد . وكتب من براين في ٩ يوليو يقول :

« بما أننا قد رفعنا الكلفة فيما بيننا تماماً يا زليده ، فيجب على أن أقول لك ان في قدرأ من الغرور يكنى لتخيلي أنك كنت حقاً تجبينى وان في من الأرحيمه ما يسمح لي بتجنب نخديعتك فلست أود الزواج منك لأكون ماكأ فلا بد لزوجتي من أن تكون شخصية مناقضة تماماً لعزيتي زليده ، إلا في الحب ، والأمانة ، واطف الطبع » (١٠٦) .

ولم تجب . فعاود الكتابة في ١ أكتوبر ، مؤكداً لها أنها تجبه ؛ ولم تجب . فعاود الكتابة مرة أخرى في ٢٥ ديسمبر .

« أيتها الأنسة ، إنني رجل متكبر ، وسأظل كذلك أبدا . وينبغي أن تفخرى بتعلقى بك . ولست أعلم إن كان ينبغي أن أكون فخوراً بالمثل بتعلقك بي . ان الرجال الذين يملكون قلوباً وعقولا مثل نادرون ، أما المرأة الكثيرة المواهب فليست بهذه الندرة وقد تستطيعين أن توافيني بتفسير لمسلتك معى » (١٠٧) .

أما ردها فيستحق أن يفرد له مكان في تاريخ المرأة . قالت :

« تلقيت رسالتك بفرح وقرأتها بشعور العرفان وكل تعبيرات الصداقة تلك ، وكل تلك الوعود بالود الأبدى وبالذكرى الرقيقة أبدا ، والتي خلصت إليها (من كلامها السابق له) ، يعترف بها قلبي ويجدها في هذه اللحظة وقد واصلت تكرار القول بأننى كنت عاشقة لك وأنت تصر على أن أعترف بهذا . وقد صدمت على أن تسمعنى أقوله وأرده . وأنى لأجد هذا نزوة في غاية الغرابة من رجل لا يحبني ويراه لزاماً عليه (بدافع اللياقة) أن يقول لى هذا بأصرح العبارات وأقواها وقد صدمنى وأحزنى أن أجد ، في صديق كنت أتصوره رجلاً صغير السن موفور التمييز ، الغرور المراهق الذى يتصف به أحقق مأفون .

« يا عزيزى بوزويل ، لست مسئولة إطلاقاً عن أنه لم يحدث فى أى لحظة أن اضطررت فى صدرك حديثى أو لهجتى أو نظرتى . فإذا كان هذا قد حدث ، فأنسه ولكن لا تنسى ذكرى الأحاديث الكثيرة التى تبادلناها حين كان كلانا خلى البال كصاحبه : فكنت أنا مغتبطة جداً بتوهى فى غرور أنك متعلق بى ، وكنت أنت سعيداً بالمثل بأن تعدننى صديقة - وكأن المرأة الكثيرة المواهب شىء نادر . . أقول احتفظ بهذه الذكرى ، وثق بأن لك حنانى ، وتقديرى ، بل أقول واحترامى ، على الدوام » (١٠٨) .

وقد أدبت بوزويل هذه الرسالة تأديباً عابراً ؛ فلزم الصمت عاماً . ثم كتب (١٦ يناير ١٧٦٦) من مارس إلى والد زليدة يطالب يدها « ألا يكون مؤسفاً ألا يتحقق ارتباط سعيد كهذا ؟ » (١٠٩) . ورد الوالد بأن زليدة تنظر فى عرض آخر . وبعد عام أرسل إليها بوزويل عرضاً مباشراً . فأجابت ، قرأت عبارات إعزازك المتأخرة بسرور ، وبابتسامة . حسناً ، إذن فقد أحببتنى مرة » (١١٠) - ثم رفضت عرضه .

وبينما كانت لعبة المراسلة هذه دائرة كان بوزويل قد جرب الكثير من الأقطار والنساء . فى برلين شهد فردريك على ساحة العرض ، ولكنه لم يره أقرب من ذلك . وصحب إلى فراشه بائعة شوكولاتته حبلى بدت له مرفأً سليماً . وفى ليزج التى بجيابرت وجوتشيد ، وفى درسدن زار « قاعة الصور الفخمة التى قيل لى إنها أرفع مثيلاتها فى أوروبا » (١١١) . ثم هبط إلى سويسره بطريق فرانكفورت وماينز وكارلسروهى وستراسبورج . وقد رافقناه من قبل فى زيارته لروسو وفولتير . فى تلك الأيام المجيدة أخذت هالة العبقرية وحمى الشهرة شهوة الشباب .

وفى أول يناير ١٧٦٥ غادر جنيف ليحبر الألب . وأنفق تسعة شهور مبهجة فى إيطاليا ، ورأى كل مدينة كبيرة ، وذاق طعم الأثنى فى كل وقفه ، وفى روما سعى للقاء فنكامان ، ولثم قدم البابا فى خفها ، وصلى فى كتدرائية القديس بطرس ، والتقط عدوى مرضه المعضل من جديد . وارتقى فيزوف مع جون ولكس . وفى البندقية قاسم اللورد مونتستيوارت (بن ايرل بيوت)

محظيته ، ووجدد إصابته بمرضه القديم . وخلال شهر قضاه في سينا تودد إلى يورتسيا سانسدوني ، خلية صديقه مونتستيوررات ، وحثها على ألا تسمع لأي عاطفة وفاء بأن تعترض كرمها ، لأن « سيدى اللورد في فطرته مالا يجعل الوفاء نخلة يقدر على التحلى بها أو يتوقعها منك » (١١٢) .

على أن جانبه الأنبل تجلى في مآثرته التالية . فقد استقل مركباً من ليفورنو إلى كورسيكا (١١ أكتوبر ١٧٦٥) . وكان باولى قد حرر الجزيرة من سلطان جنوه في ١٧٥٧ وله ثماني سنوات في حكم الدولة الجديدة . والتقى به بوزويل في سوالاكارو ، وقدم إليه رسالة تعريف من روسو . وقد ظن به التجسس أول الأمر « ولكن سمحت لنفسى بأن أطلعته على مذكرة كتبها في المزايا التي تحقها بريطانيا العظمى من تحالف تبرمه مع كورسيكا » ، وبعدها كان يتغذى بانتظام مع الجنرال (١١٣) . وقد دون الكثير من الملاحظات التي أفادته بعد ذلك في كتابه « وصف كورسيكا » (١٧٦٨) . وغادر الجزيرة في ٢٠ نوفمبر ، وسافر في مجازاة الرفرا إلى مارسليا ، وهناك وافاه « قواد طويل القامة مهذب » بفتاة « أمينة ، وأمونة ، نزيهة » (١١٤) .

وفي اكس — أن — بروفانس بدأ يوافى « اللندن كرونكل » بفقرات أبناء تنشر في طبعات متلاحقة ابتداء من ٧ يناير ١٧٦٦ ، أعلمت الجمهور البريطاني بأن جيمس بوزويل يمد انجلترا بمعلومات مباشرة عن كورسيكا فلما وصل إلى باريس (١٢ يناير) أتاه نبأ من أبيه بأن أمه ماتت . وقد تكفل بمصاحبة صديقه روسو ، تريز لفاير ، إلى لندن ، وقد أسلمت نفسها له في الطريق ان كان لنا أن نصدق روايته . وتابث في لندن ثلاثة أسابيع . ورأى جونسن في مناسبات عدة ، وأخيراً مثل أمام أبيه في ادنبره (٧ مارس ١٧٦٦) . وكانت فترة السنوات الثلاث والشهور الأربعة التي قضها في الاستقلال والرحلة قد أعانت على إنضاجه . صحيح أنها لم تضعف من شهوته أو من غروره ، ولكنها وسعت معارفه وأفقه ، وأعطته اتزاناً وثقة بالنفس جديدين ، وأصبح الآن يلقب « بوزويل الكورسيكى » ، رجلاً تغدى مع باولى ، عاكفاً على تأليف كتاب قد يدفع بانجلترا إلى مد يد العون إلى ذلك المحرر وجعل الجزيرة حصناً بريطانياً في بحر استراتيجى .

ح - بوزويل في وطنه

في ٢٩ يوليو ١٧٦٦ رخص له بالاشتغال بالمحاماة في اسكتلنده ، وتركزت إقامته طوال السنين العشرين التالية في ادنبره ، وتخال ذلك غزوات كثيرة للندن ، وواحدة للبان . وربما أعانه منصب أبيه قاضياً ، ولكن اعازته أيضاً سرعة يديه في النقاش ، فكثرت زبائنه ، و « ربح خمسة وتسعين جنياً » في أول شتاء ترافع فيه أمام المحاكم (١١٥) . وخالط السخاء المفرط تقديره لنفسه ، فكان يدافع عن أفقر المجرمين ، ويبدد بلاغته المنمقة على أشخاص لإجرائهم واضح ، وينخر معظم قضاياها ، وينفق كل أتعابه على الشراب ، ذلك بأنه بعد تلك الشهور المشمسة التي قضاها في إيطاليا أحس بشتاء اسكتلنده يفري عظمه ، ولم يبد أن هناك دواء لهذا البرد إلا الكحول .

ثم إنه واصل تشرده الجنسي . فاتخذ له خلية تدعى المسز دورز ، واستكمالاً لخدماتها « كنت أنام الليل كله مع . . . فتاة من عرض الطريق » وسرعان ما « اكتشفت أنني ابتليت بعدوى المرض » (١١٦) وبعد ثلاثة أشهر ، وفي دوار الحمر ، « ذهبت إلى ماخور ، وأنفقت ليلة كاملة بين ذراعي بغي . . . وكانت فتاة رائعة ، قوية ، مرحة ، بغياً جذبة ببوزويل ، ان كان لابد لبوزويل من بغي » (١١٧) وأصابته عدوى أخرى ، وكان واضحاً أن الزواج هو السبيل الأوحى لإنقاذه من التدهور البدني والأخلاق . فتودد إلى كاترين بلير ، ولكنها رفضته . ثم وقع في غرام ماري آن بويد ، وكانت صبية إرلندية لها جسم إغريقي وأب غني . وتبعها إلى دبلن (مارس ١٧٦٩) ، وفقد غرامه في الطريق ، وسكر ، وألم ببغي إرلندية ، وأصيب مرة أخرى بمرض سرى (١١٨) .

وفي فبراير ١٧٦٨ دفع إلى المطبعة بمخطوط « تاريخ كورسيكا ، يوميات رحلته إلى تلك الجزيرة ، ومذكرات باسكال باولي » ، وأثارت خيال إنجلترا. ناشدته بريطانيا للمزيد المعونة لباولي ، وأعدت الرأي العام للوفاق على الإجراء الذي اتخذته الحكومة البريطانية بعد ذلك لإرسال السائح والمؤن سرّاً إلى الكورسيكيين . وبيع من الكتاب عشرة آلاف نسخة في انجلترا ، وترجم

إلى أربع لغات ، وأكسب بوزويل من الصيت الذائع في القارة ما لم يظفر به جونسن . وفي ٧ سبتمبر ١٧٦٩ ظهر المؤلف في مهرجان شكسبير بستراتفورد مرتدياً زي زعيم قبيلة كورسيكي ، وعلى قبعته كتبت عبارة « بوزويل الكورسيكي » ، وكان هذا لحفلة رقص تنكرية ، لذلك لم يكن يستحق تماماً ما لقي من هزاء وسخرية .

وكانت ابنة خاله مرجريت مونجومري قد صحبتته إلى أيرلنده ، واحتملت في وداعة مغازلاته وعربدته الأيرلندية . وكانت تكبره بسنتين ، ولم يكن في مهرها البالغ ١٠٠٠ جنيه ما يجعلها زوجة كفوّاً لوريث أو خنك (كما أكد بوزويل الأب) ، ولكن حين تأمل محبتها الصابرة لاح له أنها امرأة صالحة ستكون زوجة صالحة ، ثم ان اشتهاره بالفسق والسكر حد مجال اختياره . وكان القاضي نفسه يفكر في الزواج ، مما يضع زوجة أب بين الوالد والولد ، وقد يبدد شطراً من التركة . واتمس بوزويل من أبيه ألا يتزوج ، ولكن الأب أصر ، فتشاجرا ، وفكر بوزويل في الذهاب إلى أمريكا ، وفي ٢٠ يوليو ١٧٦٩ كتب إلى « بجي » مونجومري يعرض عليها الزواج والذهاب معه إلى أمريكا والعيش على جنيهاته المائة في العام وعلى فائدة جنيهاتها الألف . وأندرها بأنه عرضة لنوبات من الاكتئاب . وردّها (٢٢ يوليو) جدير بالتنويه :

« أنعمت التفكير ، كما أردت ، وأنا . . . أقبل شروطك . . . أن ج. ب. بجنيهاته المائة في العام هو في نظري غالي القيمة تماماً كما لو كنت أملك ضيعة أونخنك . . . ولما كنت نحلواً من الطمع ، فإنني أؤثر السعادة الحقة على مظهرها الفخم . . . فثق يا عزيزي جيمي أن لك صديقة على استعداد لبذل كل شيء في سبيلك ، صديقة لم تشته قط الثروة إلا لتنحها للرجل الذي ملك قلبها » (١١٩) .

وفي ١٩ نوفمبر تزوج الأب ، وفي ٢٥ نوفمبر تزوج الابن . وأقام الزوجان الشابان بيتاً خاصاً بهما ، وفي ١٧٧١ استأجرا شقة من ديفد هيوم . وكافح جيمس للإقلاع عن السكر ، وجد في عمله محامياً ، وسعد بالأطفال

الدين ولدتهم له زوجته . ويبدو أنها صدمت تودده الزوجي خلال الشهور الأخيرة من حملها المتكرر ، ففي ٢٧ أكتوبر ١٧٧٢ ذهب إلى مومسي بعد أن « أفرط في شرب النبيذ » (١٢٠) . وقد التمس لنفسه العذر بحجة أن التسرى أجازته التوراة . ثم عاد إلى الشراب ، وأضاف إليه القمار . وجاء في يومياته بتاريخ ٥ أكتوبر ١٧٧٤ « شربت حتى ثملت » وفي ٣ نوفمبر « شرب كثيرون منا من الغداء حتى العاشرة ليلاً » وفي ٤ نوفمبر « ثملت جداً . . . وقعت على الأرض بعد عنف كثير » وفي ٨ نوفمبر « سكران مرة أخرى » وفي ٩ نوفمبر « كنت مريضاً جداً ، ولم أستطع مغادرة الفراش حتى الساعة الثانية تقريباً » وفي ٢٤ ديسمبر : « كنت سكران جداً . . . مكثت أكثر من ساعة مع موهسين في مسكنها على سلم قنر ضيق في حي البو . ووجدت طريقي إلى بيتي حوالى الثانية عشرة . لقد سقطت » (١٢١) . وغفرت له زوجته ، وبذلت له العناية في أمراضه .

وكان لشربه الخمر أسباب كثيرة : كثرة قضاياها الخاسرة في المحاماة ، والعنت الذي لقيه في علاقته بأبيه ، ونخزيه من خيانتة الزوجية وشعوره بأنه لم يحقق أحلام عزوره ، واشمئزازه من الحياة في اسكتلنده . وألف أن يهرب إلى لندن كل سنة تقريباً ، من جهة ليرافع في قضايا له هناك ، ومن جهة أخرى ليستمتع بحديث جونسن ، ورينولدز ، وجاريك ، وبيرك . وفي ١٧٧٣ سمح له بالانضمام إلى « النادي » . وفي خريف ذلك العام جاب شوارع إدنبره في فيخر وإلى جواره الدكتور جونسن ، توطئة لرحلتهما إلى جزر الهبريد .

ظل في رحلاته اللندنية هذه أول الأمر وفاقاً لزوجته ، وكان يكتب إليها في شغف ، ولكن ما واني عام ١٧٧٥ حتى كان قد استأنف إيثاره للعريضة الجنسية . وقد اشتد انشغاله بها حوالى نهاية مارس ١٧٧٦ يقول « فلما نزلت إلى الشارع ركبتني شهوة الفسق ، ففكرت في أن أخصص لها ليلة » . ولكن التخصيص امتد عدة ليال . « فكرت في زوجتي الغالية بأعظم احترام وأحر محبة ، ولكن ساورتني فكرة مشوشة بأن اتصالي الجسدي بالعاشرات لا يمس حبي لها بسوء » (١٢٢) . ورده إلى رشده مرض سرى جديد .

وقد جرت عليه هذه المغامرات ، وتبعيته لجونسن ، تعليقات ماؤها
الازدراء من رجال كهوراس ولبول ، ونقداً لاذعاً (بعد موته) من
ماكولى (١٢٣) ، ولكنها لم تتركه بغير صديق . « ان اتصافى بالكفاءة
وكثرة المعارف يجعل الناس مغرمين بكسب مودتى » (١٢٤) وكان أكثر
اللندنيين يوافقون بوزويل على أنه ليس لامرأة الحق في رجل بأكمله . وإذا
كان رجال كجونسن ورينولدز قد أحبوه ، وإذا كانت بيوت لندنية
كثيرة قد فتحت له أبوابها ، فلا بد أنه كان يملك الكثير من السجايا المحببة .
وقد عرف هؤلاء الرجال ذوو البصيرة الثاقبة أنه كان يتنقل من امرأة
لأخرى ، ومن فكرة لفكرة ، تنقل المسافر المستعجل ، يחדش سطوحاً
كثيرة دون أن ينفذ إلى لباب الأشياء ، ودون أن يشعر قط بالروح المرضوضة
وراء لحم الضحية . وقد عرف هو أيضاً هذه الحقيقة فقال « ان لى فى الحق
عقلا صغيراً مع كل كبريائى ، وما أشبه المعيتى بالوشى على الشاش » (١٢٥) .
« ان فى أفكارى كلها نقصاً ، وسطحية . ولست أفهم شيئاً بوضوح ، وإلى
القاع . فأنا ألتقط الشظايا ، ولكنى لست أملك فى ذاكرتى كتلة كاملة
ذات كبر أيا كان » (١٢٦) .

ولكن تلك الشظايا وتلك الذاكرة ، هى التى كفرت عنه ، فقد عرض
عن عيوبه بعبادته لذلك التفوق ، الذى لم يستطع تحقيقه لنفسه ، فى الآخرين ؛
بملازمتهم فى تواضع ، يتذكر كلماتهم وأفعالهم ، وأخيراً ، وببراعة
عظيمة ، بوصفها فى ترتيب وفى ضوء ألفا صورة لاتبارى لرجل ولعصر .
ليت القناع لا يمزق عنا إبداً - عن أجسادنا وعقولنا ، عن شهواتنا الدفينة
وغرورنا الذى لاينى - مثل ما أمعن هذا الرجل ، نصف التابع الخانع
نصف العبقري ، فى الكشف عن نفسه للأجيال القادمة .

